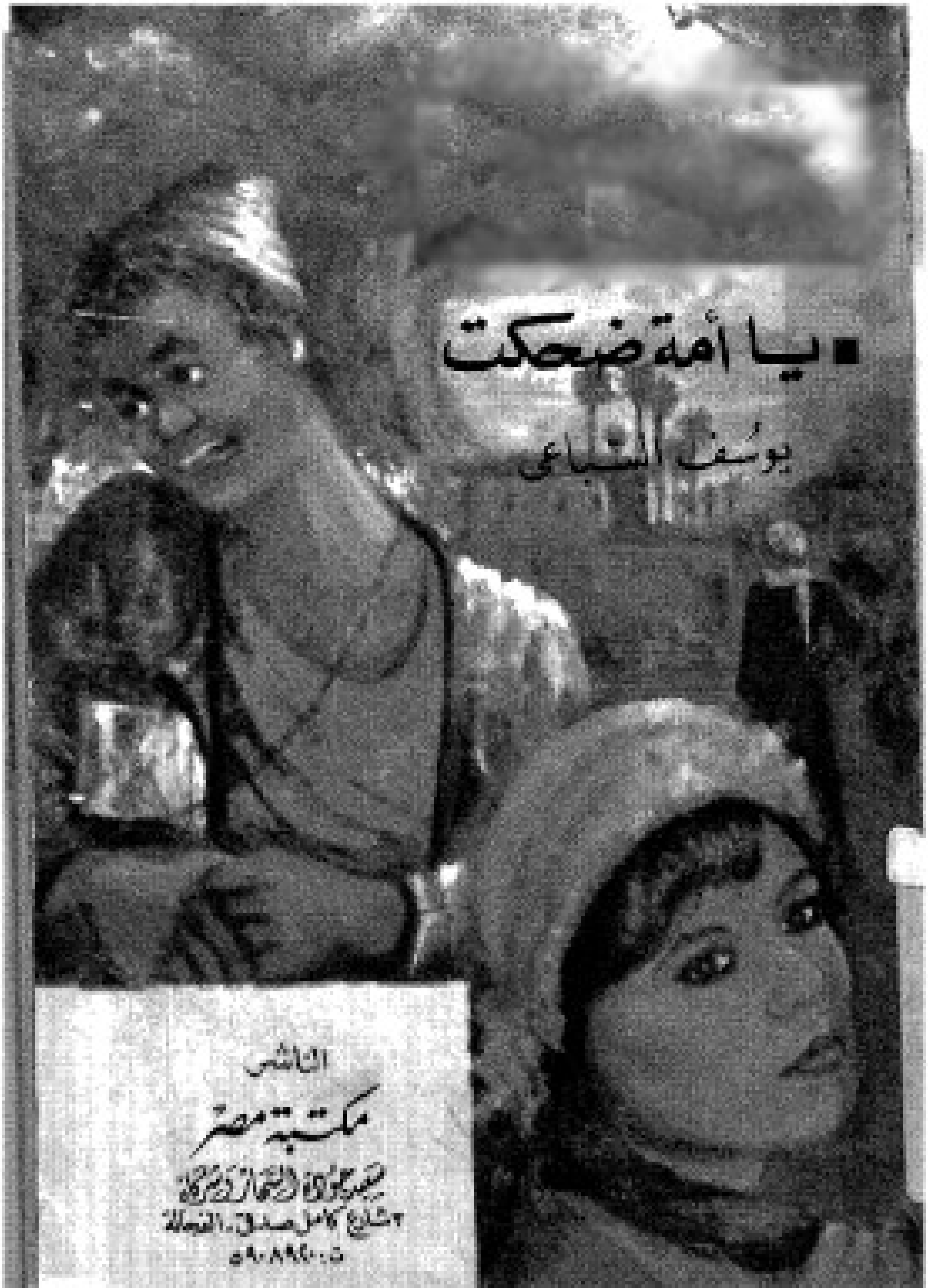

يا أمة ضحكت
يوسف السباعي
الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

مؤلفات
يوسف السباعي

قصص
قصيرة

■ يا أمة ضحكت

يا أمة ضحكت

أما الجهل المركب ... فمصابه ثقيل ... فهو جهل أولئك الذين لا يظنون بنفوسهم جهلا ... أولئك القادرون المسيطرون المترفعون ... المتكبرون ... الذين يكسون أنفسهم طلاء زائفا من الفهم والذكاء ... ويبهرون غيرهم بمظهرهم الكاذب الخادع فيتولون أمر سواهم ، ويتحكمون فى مصاير غيرهم ... والجهل فى باطنهم متأصل متحكم .

أبطال قصتنا تسعة !!

الوقت قبيل الغسق .. وقد وقف أبطالنا صفا واحدا فى وسط الميدان .

لم يكن الميدان ميدان معركة .. بل كان ميدان المذبح وقد اصطف أبطالنا : تسعة حمير .

السكون سائد .. والجميع منهمكون انهماكا تاما فى الشرب وقد مدوا أعناقهم وغمروا أفواههم فى الحوض .. وأخذوا يعبون المياه فى لذة وتنعم .. وقد لوثت بقايا الطعام فى أفواههم مياه الحوض فعكرتها وطفت على سطحها بقايا التبن والنخالة .

وحول الحوض تناثرت أعواد البرسيم وكثرت أكوام الروث .. ووقف بضعة رجال متكئين على عرباتهم الكارو يتبادلون رواية النكات ويشد بعضهم أنفاسا من جوزة فى يده .

وبمنأى من القوم جلس رجل على حافة الحوض فى صمت وسكون .. وقد

بدا عليه الهدوء وشرد ببصره فى مياه الحوض . وبدا به شبه كبير بزملائه التسعة .. لا ينقصه سوى أن يدفع بفمه فى المياه وينزع عنه ذلك الطرطور الأحمر الذى يزين به رأسه ويركع على أطرافه الأربعة .

كنت أقطن فى ذلك الوقت شارع زين العابدين .. وتعودت أن أراقب هذا المنظر فى كل مغرب وأنا أجلس فى مكمنى على القهوة الواقعة على ناصية الميدان .. ولقد طال عهدى به حتى ألفته .. ولم يعد يستغرق منى أقل تفكير .. أو يسترعى منى أى التفات .. اللهم إلا شيئا واحدا .. هو الذى ظل يسبب لى بعض التساؤل من حين لآخر ، وهو : ماذا يبيع الرجل ذو الطرطور الأحمر ؟

لقد كنت أبصر به دائما وقد وضع على حماره خرجين فارغين .. وخطر لى أن الرجل تاجر واسع الرزق ، يجبر بضاعته فى نهاية يومه ، فلا يبقى منها شىء . ولكن تصادف أن لقيته فى أوقات مختلفة من النهار فوجدته كما هو بخرجيه الفارغين يسير بحماره صامتا لا يصدر منه أى نداء يستدل منه على نوع بضاعته .

وكان الرجل غريب المنظر ، كبير الأذنين ، مستطيل الوجه ، بارز عظام الوجنتين ، عريض الفكين ، واسع الفم .

حاولت كثيرا أن أراه بعين الوهم وقد علق فى وجهه — البشلك — ووضع فى فمه اللجام .. فلم أجد فى ذلك غرابة ، فقد كان الرجل من فرط الشبه بالحمير .. يوحى إلى الناظر إليه بأن الغرابة هى فى أن يسير الرجل على قدميه فقط .. وفى ألا يكون له حوافر بدل الأظافر ، وفى أن ينطلق فى الطرقات وحيدا لا يقوده إنسان .

وجلست أرقب الحمير التسعة وقد انتهوا من رى ظمئهم وبدأوا يعبثون بشفاههم فى الماء ويتشاغلون بالمشاغبة بالأفواه والأرجل ، وأحس صاحبنا الجالس على الحوض أن حماره قد انتهى من الشرب ، وأن وضعه فمه فى الماء ليس إلا من باب اللهو وتضييع الوقت .

وجذب الرجل حماره من حبل فى عنقه قائلا :

— لا وقت عندنا .. للعبث الليلة ..

ولم يبد الحمار أقل مقاومة بل كف عن العبث فى الماء ، وتبع صاحبه صاغرا .. ورفع الرجل صوته بالتحية وصاح مودعا : السلام عليكم .

ولم تكن تحية الرجل موجهة إلى الرجال .. ولا أجابه عنها الرجال فقد ألقاها إلى التسعة الحمير ، ورفع الحمير رؤوسهم عن الحوض .. ثم خفضوها ثانية كأنهم يجيبون على الرجل تحيته . وسار الرجل يتبعه حماره متجها إلى الشارع المؤدى إلى جبل الجيوشى حيث تقوم فى نهايته بضعة عشش تجاور « الأماين » التى يحرق فيها الجير . ومر الرجل فى طريقه بالرصيف الذى أجلس عليه أمام القهوة . وأحسست بدافع قوى يدفعنى إلى أن أستطلع ما خفى من أمر الرجل ، وأن أحاول معرفة ما يبيع . فلم يكد يقترب منى حتى صحت به :

— تفضل ...

ورفع الرجل رأسه إلى فى بطء وبلادة وقال فى هدوء :

— عشت ...

وواصل السير فى طريقه ، دون أن يحاول التوقف . فعدت ألح عليه :

— والله تتفضل ...

وتباطأ الرجل فى سيره حتى توقف . فقد أثرت فيه كلمة « والله » وعاد يكرر اعتذاره :

— عشت ، يا سيدى ، عشت .. سامحنى الليلة فإنى على موعد هام .. لنؤجل الدعوة إلى فرصة أخرى .. غدا إن شاء الله .

وكنت قد نهضت من مقعدى واقتربت منه ومددت يدى أشد على يده محييا .

ولم يخف الرجل تعجبه من هذا الإقبال منى عليه .. ورأيته يعاود السير فى طريقه .. وكنت قد صممت فى نفسى على أن أكشف أمره ، ولم يكن لدى ما يشغلنى ..

ووجدت الرجل مبعث تسلية فسرت بجواره . وحدثته متسائلا :

— أى موعد يا ترى هذا الذى يشغلك عنا الليلة ؟!.

— حلقة ذكر مع بعض الإخوان .

— ما شاء الله .. أتذهب إلى حلقة الذكر يوميا ؟!.

— كل يوم خميس .

— أين ؟

— فى سيدى الماوردى .

وأكسبت صوتى رنة الاحترام والخشية ، وقلت :

— عليه رحمة الله ورضوانه ... هل يمكننى مرافقتك إلى الحلقة حتى تحل على بعض البركات ؟

— بالطبع يمكنك .. وخاصة أن حلقة الليلة حلقة حافلة جامعة بمناسبة المولد .. مولد سيدك الماوردى .

و لم يعجبنى من الرجل أن يفرض على سيادة الماوردى .. ولكنى لم أملك سوى مداراته فقلت له :

— كل سنة وأنت طيب .

و بدأت أتجه إلى الغرض الذى أبغى الوصول إليه ، فأردفت قائلا :

— الظاهر أنك تاجر ماهر يا عم ..؟

— محسوبك أبو جهل .

— أبو جهل !؟

ونظر إلى الرجل منكرا على دهشتى ، وعاد يكرر :

— أجل ! أبو جهل .. أية غرابة فى ذلك !..

— أبدا .. أبدا لا غرابة ألبتة فى ذلك .. كنت أقول إنه يبدو أنك تاجر ماهر ، وأن تجارتك رابحة !..

— هى فعلا كذلك .

— إن لك زبائنك الذين يعرفونك ويقبلون عليك .. فما رأيتك تتعب

نفسك بالنداء على بضاعتك كما يفعل سواك من الباعة !

ـــ إن كل الناس زبائنى .. وكلهم يقبلون على .. ما حاجتى إلى أن أتعب نفسى بالصياح وهم يعرفوننى خير معرفة .. ويحتاجون إلى أشد الحاجة ..

كل هذا ولم أعرف من الخبيث بعد ماذا يبيع ولا استطعت الوصول إلى غرضى وهو معرفة نوع بضاعته .

ونظرت إلى الرجل ، ثم إلى الحمار ، ثم إلى الخرجين الفارغين وقلت متضاحكا :

ـــ الظاهر أننى رجل جاهل .. فما عرفتك بعد .. وما عرفت بضاعتك وما شعرت بحاجتى إليها .

ـــ إنك كذلك .. أغلب الظن أن بضاعتى متوافرة عندك .. ولكن أؤكد لك أن المزيد منها سيصلح حالك .

ودهشت من الرجل الحمار الذى وافقنى ببساطة على أنى رجل جاهل ، بدلا من أن يقول : العفو يا سيدى .. أنت سيد العارفين .. إن بضاعتى هى .. كذا .

وقلت له فى تهكم ظاهر :

ـــ وما هى بضاعتك يا عم أبو جهل ؟

ـــ جهل !!

ـــ جهل ؟!!. بضاعتك هى الجهل ؟.. أنت تبيع الجهل ؟.

ـــ ماذا يدعوك إلى الدهشة .. أبو جهل يبيع الجهل ويحمله فى خرجين فارغين فوق حمار .. أية غرابة فى ذلك ؟ أنا رجل صريح . مكشوف .. أم ترى لابد من النفاق والمواربة ، فأسمى نفسى الشيخ عبد العليم ، وأضع بضاعتى فى الصحائف والكتب .

ونظرت إلى الرجل نظرة نافذة مستكشفة ، وقلت لنفسى : هذا الرجل لابد أن يكون أحد اثنين : إما ماكر يتخابث على ويحاول أن يجعل منى موضع هزء

وسخرية ، وإما أبله مجنون يعتقد فعلا أنه يبيع الجهل .. وسواء أكان الرجل هذا أم ذلك فإنى لم أستطع أن أمنع نفسى من السير معه أو مجاراته فى الحديث . فقد وجدت به طرافة وتسلية ، وعدت أقول له مستدرجا إياه فى النقاش :

— ولكن لمن تبيع الجهل ؟

— قلت لك : كل الناس زبائنى ، وكلهم يقبلون على .

— ولكنى كنت أظن أن لدى الناس من الجهل ما يكفيهم .. وما يجعلهم فى غير حاجة إلى بضاعتك .

— وإنهم لكذلك .. ولكنهم لا يشبعون من الجهل أبدا . هم طماعون يريدون دائما أن يزدادوا جهلا فوق جهل .

— لابد أن خير أسواقك التى تصرف فيها بضاعتك كائنة بين الرعاع وحثالة الشعب !

— إن خير زبائنى هم فعلا حثالة الشعب .. ولكنى لا أظنك تقصد بحثالة الشعب.. ما أعنيه أنا بحثالة الشعب ، فنحن مشتركان لفظا ، ومختلفان معنى ، ماذا تعنى بحثالة الشعب ؟

— أولئك الجهال الأميون الذين يرتعون فى الجهالة .

— ما زلنا متفقين فى الألفاظ .. قل ماذا تعنى بالجهال الأميين الذين يرتعون فى الجهالة .. فسر أكثر .

— أعنى أولئك الفقراء الذين لا يملكون أجر تعليمهم ، والذين ..

— كفى . أنت جاهل . لقد كنت أعرف أن هذا ما تعنيه . لا.. لا إننى لم أعن بحثالة القوم أولئك الذين تعنيهم .. بل أعنى النقيض .. إن حثالة القوم عندنا هم الطرف الآخر .. الطرف الأغر .. الطرف العظيم الغنى .. الذى يرتع فى بحبوحة من العيش والنعيم .. والجهالة والأمية .

— أنا الجاهل يا أبا جهل ؟.. الجهل والأمية لا يوجدان إلا حيث يوجد الفقر .. إن أسواقك الرائجة هى « سيدى زينهم » و « عشش الترجمان » وفى

القرى والأرياف .

ــ لا .. لا .. الجهل يا سيدى الذى تتحدث عنه هو أبسط أنواع الجهل .. وتلك الأمية هى أخف أنواع الأمية . إنى أقصد بالجهل : الجهل المركب .. وأعنى بالأمية .. الأمية المركزة .. أمية الروح وأمية الذهن .. أنا أدرى منك بأنواع الجهل .. فتلك هى تجارتى وبضاعتى التى ورثتها من الآباء والأجداد .. إن الجهل مقسم لدينا نحن تجار الجهل ثلاثة درجات : الجهل البسيط .. والجهل المركب .. ومنتهى الجهل !

وأحسست من حديث الرجل أنه أعمق مما أتصور ، وأن الرجل لابد أن يكون جاهلا حكيما ، أو حكيما جاهلا .

وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة إلى دار الرجل .. وهى كوخ قد بنى من الطين والصفائح الفارغة ، علته سقيفة من جريد النخل .. وتوقفنا عند باب الكوخ .

وكرهت أن أفارق الرجل .. وأن نقطع حبل الحديث الشائق الذى دار بيننا فأحرم من آرائه العجيبة عن الجهل والجهال .

ونظر الرجل إلى ثم دفع الباب بقدمه ، وقال لى :

ــ تفضل يا سيدى .

ــ أنا لا أريد مضايقتك .. ويخيل إلى أن الأفضل أن أتركك الآن وأعود إليك بعد برهة لنذهب سويا إلى « حلقة الذكر » .

ــ تفضل يا سيدى .. فلست أرى معنى لقولك إن وجودك يضايقنى اللهم إلا إذا كنت تأنف من دخولك جحرى .

وكان قوله كافيا لكى يزج بى معه إلى داخل العش دون أى مناقشة أو اعتراض ، فما كنت بالشخص الذى يأنف ويتكبر .

دلفت مع الرجل إلى الداخل ، فوجدت المكان قد شملته ظلمة معتمة .. وبعد برهة تعودت عينى الظلمة .. وأشعل الرجل مصباح غاز فبدد الظلمة تماما .. واستطعت أن أميز كل ما حولى ..

كان المكان عبارة عن حجرة ضيقة فرشت أرضها بالحصير ، ووضع فى أركانها زير ملىء بالمياه . ورأيت الحائط وقد غطى بلافتات مليئة بالحكم والأمثال ، وفى أسفل الحائط كوم من الكتب المكدسة ذات الورق الأصفر ، وصندوق خشبى مغلق .. وفى ركن من أركان الحجرة وضع مشجب عليه جلباب وفوطة .

وسألنى الرجل الجلوس ، ولم يكن هناك ما أجلس عليه ، فتربعت على الأرض ، وفتح الرجل الصندوق الخشبى وأخرج منه وابور سبيرتو ، وكنكة ، وعلبة صفيح صغيرة ، وفنجانين وفرشاة كبيرة . ولم أشك فى أن ما أخرجه الرجل هو عدة القهوة ، ولكن الفرشاة الكبيرة حيرتنى بعض الشىء .

ودفع الرجل إلى بما أخرجه من الصندوق . عدا الفرشاة التى احتفظ بها لنفسه ، وقال لى شبه آمر :

ـــ اصنع لى ولك فنجانين من القهوة .

ولم يكن هناك مجال للرفض خاصة وأنه يسألنى أن أصنع له هو فنجانا من القهوة ، وتركنى فى الحجرة وخطا نحو الباب ولمحته فى الخارج يربت على ظهر حماره ويحدثه قائلا :

ـــ لدينا اليوم ضيف يا زكى ما رأيك فيه ؟..

وصمت الرجل برهة كمن يتلقى من الحمار ردا .

ثم رأيت أساريره تنبسط وفرك يديه فى سرور وقال للحمار :

ـــ تماما .. لم أكن أشك فى أنه سيعجبك كما أعجبنى .. أجل .. أجل .. إنه كما تقول : حمار كبير .

ورفعت بصرى إلى الرجل الذى يوجه إلى السباب ببساطة كأنه يمتدحنى ، ولكن وجدته منهمكا فى الحديث مع الحمار فلم يسعنى إلا التجاوز عن حديثه والتشاغل فى صنع القهوة .

ورفع الرجل الخرج : خرج الجهل ، من فوق ظهر الحمار ووضحت لى عند

ذاك فائدة الفرشاة التى أخرجها من الصندوق فقد رأيته يقبل على الحمار فيدلك جسده جيدا بالفرشاة ويزيل منه الأتربة والقاذورات ، وكان لا يفتأ يوجه إليه الحديث بين آونة وأخرى .

قال الرجل للحمار :

ـــ اليوم مولد سيدك الماوردى .. ولا أظن بك كثير رغبة فى الذهاب معه .. سأذهب بك الآن إلى الزريبة لتبيت مع أصحابك . لا تنس أن تبلغهم تحياتى . وقل لنبيه إن الحدوة التى طلبها منى سأحضرها له فى الغد . أما فهيم فإنى لم أستطع بعد أن أعثر له على الجلاجل .. قل له انتظر بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة أخذ ينفض خلالها الفرشاة مما علق بها من الأتربة ، ثم عاود التدليك وأردف قائلا :

ـــ سيرافقنى صاحبنا إلى حلقة الذكر ، ثم إلى المولد .. الظاهر أنه شديد الجهل بالجهل وفنونه .. سألقنه اليوم بعض دروس فى الجهل مجانا لوجه الله .. إذ يبدو لى أنه رجل طيب وقد ينفعنا فى يوم من الأيام .. فعندما أموت لاشك أنكم ستكونون فى حاجة إلى زعيم يتولى أمركم . من يدرى ربما يصلح صاحبنا ليكون خليفتى !

وأقول الحق أنى شعرت فى قول الرجل بشىء من الكبرياء .. وسرنى أن أرشح خليفة لزعيم .. أى زعيم ، ولو كان زعيما للحمير .

وكنت قد انتهيت من صنع القهوة ، وأفرغت لنفسى فنجانا ، وللرجل فنجانا ، وصحت به أعلنه أن القهوة جاهزة ، وكان قد انتهى من تدليك حماره ، فأقبل على يشاطرنى القهوة .

وانتهينا من شرب القهوة ، وقام الرجل إلى الصندوق فأخرج منه شالا تلفع به وقال لى :

ـــ هيا بنا .. سنمر على الزريبة فنترك زكى ، ثم نذهب بعد ذلك إلى الجامع .

ولم تكن الزريبة تبعد قليلا عن كوخ الرجل .. ووجدتها زريبة لتربية

الخنازير ، بها جناح لنزول الحمير .

وكان على بابها حارس حياه أبو جهل ، وسلم له الحمار قائلا :

ـــ خذ بالك منه جيدا يا عيد . لقد أطعمته وسقيته ، وإذا كان عندك بعض التين فأعطه يتسلى .

ثم وجه القول للحمار قائلا :

ـــ زكى ، إياك والشقاوة ، إذا رفسك فهيم فلا ترد عليه وسأعرف كيف أؤدبه .

في الطريق عدنا إلى حديثنا عن الجهل ، فقلت له متسائلا :

ـــ لقد قلت لى إن أنواع الجهل ثلاثة : بسيط ، ومركب ، ومنتهى الجهل ، فماذا كنت تعنى بذلك ؟

ورفع الرجل طرطوره الأحمر وهوى به على رأسه برهة ، ثم بدأ يشرح قائلا :

ـــ الجهل البسيط ، يا سيدى ، هو أسهل أنواع الجهل وأخفها ضررا ؛ وهو جهل لا يتجاوز ضرره صاحبه ولا يتعداه إلا إلى نطاق ضيق حوله .. هو جهل أولئك السذج البسطاء .. جهل يسهل إزالته والتخلص منه .

أما الجهل المركب .. فمصابه ثقيل .. فهو جهل أولئك الذين لا يظنون بنفوسهم جهلاءأولئك القادرون المسيطرون المترفعون ، المتكبرون ، الذين يكسون أنفسهم طلاء زائفا من الفهم والذكاء ، ويبهرون غيرهم بمظهرهم الكاذب الخداع فيتولون أمر سواهم ويتحكمون فى مصاير غيرهم ، والجهل فى باطنهم متأصل متحكم .. أجل إن أصحاب الجهل المركب هم أول المسئولين عن الجهل البسيط ، فهم يجدون منه غشاوة تعلو أبصار الناس لتحجب عنهم جهلهم المركب .. الجهل المركب يا سيدى هو جهل الحكام وأولى الأمر المتخبطين فى ظلمات الجهالة .. الذين يتعدى ضرر جهلهم أنفسهم إلى الآلاف بل الملايين غيرهم .. لعلك عرفت الجهل المركب. إنه أصل الجهل البسيط .. وهو أصل كل داء وكل علة .

وفهمت ما يعنى الرجل وهززت رأسى موافقا .. فما سمعت قولا أحكم من هذا القول .

وساد بيننا الصمت برهة ، ثم قاطعته متسائلا :

ــ ومنتهى الجهل ماذا يكون ؟!

ــ منتهى الجهل يا سيدى هو ذلك الشيء الناتج عن منتهى العلم .

ــ تقصد أن منتهى العلم ينتج عنه منتهى الجهل ؟.. أى أن منتهى العلم ومنتهى الجهل متساويان ؟

ــ بالضبط .

ــ لا .. لا .. يا أبا جهل .. إلى هنا .. ولا أوافقك . إن قولك هذا هو منتهى التخريف .

ــ أشكرك .. ألم أقل لك إنك ما زلت جاهلا بأصول الجهل ، سأضرب لك مثلا أعلمك به منتهى الجهل . هل تسمع عن القنبلة الذرية ؟

ــ بالطبع ..

ــ ما رأيك فى مخترعها ؟.

ــ منتهى العلم .

ــ هل تعرف الكسكسى ؟

ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك .. وأجهدت رأسى فى أن أجد وجها للشبه بين القنبلة الذرية والكسكسى فلم أستطع ، وأجبت الرجل ضاحكا :

ــ طبعا أعرف الكسكسى .

ــ ما رأيك فيمن يصنع حلة كسكسى ويتركها يومين حتى تتسمم ثم يبيعها للناس فيقتلهم زرافات ووحدانا .

ــ منتهى الجهل !

ــ ما رأيك فيمن يحمل ميكروب الكوليرا فيصيب به بلدة بأكملها ويبيد سكانها ؟

— منتهى الجهل !

— ألا ترى أن نتيجة منتهى العلم تتساوى مع نتيجة منتهى الجهل ، وهى الإبادة والفناء .. هل تعرف أن منتهى العلم قد أضحى هو نفسه منتهى الجهل .

هل تعلم أن أقدر الناس فى هذا العالم وأعظمهم شأنا أولئك الذين يترأسون الدول ويتحكمون فى مصاير البشر هم أشد الناس جهلا بحقائق الأمور .. وهل هناك أكثر جهلا من أولئك الذين يلقون بأنفسهم وببلادهم إلى التهلكة بزعمهم أنهم يقودونهم إلى سلام دائم وعالم أفضل .

ألا يدرك هؤلاء الحمقى أنهم عندما يصلون فعلا إلى ذلك العالم الأفضل الذى يبغون تحقيقه بطريقتهم لن يكون قد بقى من البشر من يعيش فيه ؟

ألا ترى معى أن منتهى العلم قد تساوى مع منتهى الجهل ؟

وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة إلى جامع الماوردى .. أو على الأصح زاوية الماوردى .. فخلع الرجل نعليه ، وحذوت حذوه .

ثم دلفنا إلى داخل الجامع ، وكان المكان حول الجامع قد غص بعربات الباعة المتجولين ، وتناثرت المراجيح هنا وهناك ، ودقت الطبول والزمور وعلقت الزينات .

وانحشرت وصاحبى بين صفوف المصلين الذين ضاقت بهم الزاوية .. وأخذنا نركع ونسجد ونسبح ونتمتم .

وانتهينا من الصلاة ، ومضت فترة غير وجيزة كان الجمع يستعد خلالها للذكر .. وأخيرا وقفنا واصطففنا فى حلقة ، ورأيت واحدا من الجمع تبدو عليه مظاهر الرياسة قد بدأ يغمض عينيه ، ويجعد وجهه ، ويهز جسده ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يصيح منشدا بصوت أخذ يعلو رويدا رويدا حتى صار صراخا .

واستطعت أن أتبين من أقواله المدغمة أنه ينشد بعض أناشيد الذكر . وصمت الرجل ، ثم رأيت القوم قد أغمضوا عيونهم ، وبدأوا يترنحون ذات اليمين وذات

اليسار ، منشدين فى صوت مبحوح :

ـــ الله حى .. الله حى .

وأغمضت أنا الآخر عينى وأخذت أقلدهم .. وكنت أفتح عينى من آن لآخر لأرمقهم وقد اشتدت بهم الحماسة وتهدجت أصواتهم ونظرت إلى صاحبى فوجدته لا يقل عنهم حماسة ، وقد جعد وجهه الحمارى ، وأغمض عينيه ، وانهمك انهماكا تاما فى الذكر ، وأحسست بالاحترام الذى تركه حديث الرجل وفلسفته فى نفسى يتطاير ويتبدد ، وأنا أراه على تلك الحال من الترنح والصياح ، وقلت فى نفسى : كدت أخدع فيك يا أبا جهل .

ولكنى رأيت الرجل فجأة يمسك بيدى فيجذبها .

ونظرت إليه فوجدته قد كف عن الذكر ووقف منتصب القامة ، يشير بعينيه فى سخرية إلى القوم المغمضى الأعين ، المبحوحى الأصوات ، وقد تصبب من وجوههم العرق ، وكادوا يسقطون إعياء ، وسمعت الرجل يهمس فى أذنى :

ـــ انظر !.

ـــ ماذا ؟.

ـــ هذا هو الجهل البسيط ، كل منهم لا يعدو أن يكون « تور الله فى برسيمه » ما معنى هذا التهريج والترنح والصياح . ماذا يفيدون من هذه المسخرة . وماذا يفيد الله ؟ أترى لو صرفوا جهودهم ووقتهم فيما يفيد أنفسهم أو يفيد سواهم ، ألا يكون ذلك أكثر ثوابا وأجزل نفعا ؟ ترى أى الجمعين أفضل : هذا الجمع من الآدميين الصائحين الهازلين المخابيل أم ذاك الجمع من الحمير الراقدين فى زريبتهم حامدين الله على نعمه .

ترى أى الطريقتين أفضل فى حمد الله وذكره : طريقة الحمير الهادئة الصامتة ، أم طريقة الآدميين المخبولة المجنونة ؟

ونظرت إلى القوم المخابيل الذين لا يحسون بشىء من حولهم ، وتصورت فى ذهنى منظر الحمير راقدين فى زريبتهم ، مستريحين هادئين ، وهمست فى أذن صاحبى:

— إن الحمير أفضل بالطبع !.

— تصور لو أن بعض الناس ممن صنعت فيهم معروفا حاولوا حمدك وذكر فضلك بأن تكأكأوا أسفل نافذتك وأخذوا يضجون بالصياح الساعات الطوال على هذا المنوال ترى ماذا كان يصيبك ؟

وصمت الرجل برهة ثم أنعم البصر فى القوم التائهين الصائحين ، وهز رأسه فى أسف قائلا :

— أيها الجهال .. اتقوا الله !! ما علينا .. هذا هو أبسط أنواع الجهل .. فضرره كما قلت محدود .. هيا انهمك فى الذكر ، وإلا أحس بنا القوم .

... وعدت أترنح يمينا ويسارا صائحا بأعلى صوتى :

— الله حى .. الله حى .

وأخيرا انتهى الذكر ، وخرجت وصاحبى أبا جهل ، كأننا خارجون من « ماتش كرة » من فرط ما أصابنا من جهد وأخذنا نجول فى المولد الصاخب الضاج ، وأشار الرجل إلى الجماهير المحتشدة الصارخة وقال :

— نوع آخر من الجهل البسيط .

وهززت رأسى موافقا ، وقلت له متسائلا :

— أريد أن أشهد شيئا من الجهل المركب .

— مستحيل .. الجهل المركب دائما مستتر ، إنه يحجب دائما خلف ستار من المعرفة والذكاء ؛ إن موطنه الأصلى لاظوغلى وما حوله ، هذه هى المنطقة الموبوءة بالجهل المركب ، ولكنك لا تستطيع أن تشاهد مظاهره بسهولة كما شاهدت مظاهر الجهل البسيط ، فأصحابه ليسوا بمثل هذه البساطة والسذاجة حتى يظهروا جهلهم جليا واضحا .. فهم يحاولون جهدهم إخفاءه ، ومع ذلك فهو يظهر فى نتائج أعمالهم ، ويحيق ضرره بهم قبل غيرهم .

ألا ترى كيف يتعاقبون على كراسى الحكم ، فلا تكاد تمر بهم الأيام حتى يفضحهم جهلهم المركب ، جهلهم الذى يحصر أذهانهم فى دائرة ضيقة ؛

فتراهم إما أن يفعلوا الخطأ أو لا يفعلوا شيئا أبدا ؛ وهل هناك أشد دلالة على هذا الجهل المركب من تلك الطريقة التى يحاولون بها صد خطر الشيوعية .

هم يعلمون أن الوقود الذى تشتعل منه نيران الشيوعية هو : الحرمان ، والفقر ، والجهل .. ويعلمون أنهم سيذهبون أول طعم لتلك النيران ، وأن الكثير الذى يملكونه سيذهب كله هباء ، ومع ذلك ! فلا يحاولون أن يضحوا ببعضه حتى لا تجد النيران ما يهيىء لها السريان ، هم لا يفعلون شيئا من هذا .. بل يقبضون على فلان المكوجى ، وفلان مبيض النحاس ، ويفتشون بيت هذا وبيت ذاك ، ويشغلون المحاكم بالقضايا التى لا تنتهى إلى شيء أو إلى تبرئة كل من قبضوا عليهم .

هذا يا سيدى هو مثل للجهل المركب الذى سيؤدى بهم وبالبلد إلى التهلكة .

وصمت الرجل ، وكنا قد ابتعدنا عن المولد عائدين فى طريقنا إلى دورنا ، وعندما وصلنا إلى الميدان وهممنا بالافتراق سألنى الرجل أن أصطحبه إلى الزريبة حتى أشاهد اجتماع مجلس الحمير ، أو كما يسميه : مجلس العلماء ، لأنه قرر أن يعقده حتى يجد حلا لهذه الحال التى تسير إليها البلد .

و لم أرفض الدعوة بالطبع فما شاهدت فى حياتى مجلسا للحمير ، و لم أشك فى أن المجلس سيكون على شيء من الطرافة .

ووصلنا إلى الزريبة ودلفنا من الباب متجهين إلى جناح الحمير ، ووجدناهم مستلقين فى هدوء وراحة ، وألقى عليهم صاحبى التحية فهزوا رؤوسهم رادين على تحيته .

وطلب منى الرجل أن أكون فى المجلس مجرد « كبسى » .

وسألته عما يعنى ، فقال ضاحكا :

ـــ مجرد مستمع كمندوب اليمن السيد الكبسى .

ووقفت ساكنا ، وبدأ النقاش فى مجلس الحمير ، ومرت فترة طويلة وأعضاء المجلس محتدون حتى ساد السكون أخيرا وبدا أنهم قد انتهوا إلى أمر ؛ ونظر إلى

زعيمهم أبو جهل وقال لى :

ـــ اتفقنا .

ـــ علام ؟

ـــ لقد قرر المجلس ـــ مجلس العلماء ـــ القبض على مجلس الوزراء ، ومجلسى النواب والشيوخ بتهمة الشيوعية والتآمر على قلب نظام الحكم لأنهم أشد أنصار الشيوعية والعاملين على انتشارها فى هذا البلد .

وصمت أبو جهل برهة ثم أردف قائلا :

ـــ وكذلك وافق المجلس على اقتراح تقدم به أحد الأعضاء .

ـــ وما هو ؟

ـــ إقامة تمثالين فى أكبر ميادين القاهرة للزعيمين اللذين لن تجد الشيوعية موطئا لها ما داما فى مصر .

وأصابتنى دهشة إذ لم يكن لدى أية فكرة عن هذين الزعيمين ، وقلت متسائلا :

ـــ ومن هما ؟

ـــ الحلوجى وأبو ظريفة : زعيم الطعمية وزعيم الفول .

أجل . ما دام فى مصر طعمية وما دام فيها فول فلن يضام فيها إنسان .. الطعمية والفول يتساوى أمامهما جميع المصريين .

وهنا نهق حمار فسمعت أبا جهل يهز رأسه ويقول بهدوء :

ـــ صدقت .

ودفعنى حب الاستطلاع إلى أن أستفسر عما يقوله الحمار فأجابنى أبو جهل : إنه يقول : يا أمة ضحكت من جهلها الأمم .

نابغة الميضة

وظهرت نتيجة الانتخابات ... فكانت فوزا ساحقا للعقب .

وهكذا فاز العقب ... لا مبادىء ولا مواهب ... ولا كفاءات ولا عبقريات ... ولا علم ولا شيء أبدا ... سوى النقود .

فليحيى العقب .. وليحيى قانون الانتخابات .

لست أدرى ما صنع الله بحارة الميضة فى أيامنا هذه ... فقد مضى على ما يقرب من الخمسة عشر عاما لم تطأ قدماى أرضها ولا طاف برأسى ذكرها ، حتى أحسست بها اليوم تدفع ذاكرتى دفعا .. لمجرد صورة عابرة مرت بعينى .. فحملتنى إلى الوراء خمسة عشر عاما ، ونقلتنى من أحد أركان « شبرد » فهوت بى إلى حارة الميضة . وما أدراك ما حارة الميضة !!

***

« الصلاة خير من النوم » .. بهذا القول هتف الشيخ محمد طرطور وقد علا مئذنة جامع السيدة .. رافعا كفه على صفحة وجهه .. مغلقا عينيه ، وقد علت وجهه تجاعيد الإنهاك من الصياح ، وبدا كأن ما فى جوفه من قلب ، ورئتين ، وأحشاء وأمعاء ، على وشك أن تخرج من فمه مع صيحته ، من فرط ما كان يجهد نفسه فى الصراخ .. فقد كان يرغب فى إيقاظ أهل الحى .. حتى يقوموا لأداء فريضتهم ، ويكون بذلك قد أدى واجبه .

ومع ذلك فما سمعه أحد .. فقد استغرق القوم فى سبات عميق ، وحتى القلائل الذين وصل إليهم صوته .. لم يصعب عليهم إلا أن يقنعوا أنفسهم بأن النوم خير من الصلاة وبأن دفء الفراش واسترخاء النوم ، خير ألف مرة من ركعتين وسجدتين ، وماء بارد يثلج الأطراف .. فأغمضوا عيونهم وعادوا إلى سباتهم .

وهكذا شمل الحى سكون الفجر العميق ، ولم يبد على الدور الساكنة أن المؤذن قد عنى أهلها بصياحه وصراخه . اللهم إلا ناحية بدت فيها علامات اليقظة والحياة ، ودل ما فيها من همهمة ونحنحة ، وتمخط على أن أهلها من أهل الله ، وأنهم قد طرحوا النوم عن أجفانهم ، ونووا أن يؤدوا الفرض ويعطوا ما لله لله .

هؤلاء هم أهل حارة الميضة القائمة عند الباب الخلفى لجامع السيدة ، والتى تطل عليها ميضة الجامع ، والحارة فى حد ذاتها لا تستحق أن يكون لها أهل ، فهى لا تعدو المائة متر طولا والعشرة عرضا ، يقوم الجامع على أحد جوانبها وتقوم بضعة حوانيت على الجانب الآخر ، وعلى ذلك فلا محل هناك لساكن ينزل بأرجائها ، ومع ذلك فهى عامرة بالسكان غنية بالأهل .

وماذا يضير أهلها ألا تأويهم فيها حجرات ؟ وفى قارعتها لهم خير مأوى وخير ملاذ ، وما حاجتهم إلى الدور فيها والمنازل ، وفى أرصفتها أطيب منزل ، وأرحب دار .. أليس فى قناعتهم من حارة الميضة بأرائك من طوب وأسفلت ؟! ضمان لهم فى الجنة بأرائك من سندس وإستبرق ؟!.

ومع ذلك فلم تكن الحارة تخلو من بضع مصاطب تقوم على أطنابها ، وترتفع عن الأرض بضعة أقدام ، لتتخذ دورا لأولياء الله الثابتين ، ولست أعنى بالثابتين ، الثابتين على دينهم — فأولياء الله هؤلاء لا يشغل الدين من رؤوسهم كثيرا ولا قليلا — ولكنى أعنى الثابتين فى أماكنهم ، أو فى مصاطبهم .. فهى محل عملهم ونومهم ، وأكلهم وشربهم ، وقد دعانى إلى تسميتهم بالثابتين أن أميزهم

عن سواهم من أهل الحارة من أولياء الله المتحركين .. الذين يجوبون الأرض ويضربون فى أطنابها نهارا ، ثم تأويهم الحارة ليلا ، بعد أن يعودوا إليها محملين بخيرات الله .

كان أول أهل الحارة استيقاظا هى الشيخ محمد ، ولا تظنوا أن قولى هى نوع من السهو أو الخطأ ، فإنى أقصد بـ « هى » ، هى فعلا ، فقد كانت امرأة . أما اسمها الشيخ محمد ، فما ذنبى واسمها هكذا .. وما من فرد من أهل الحارة إلا ويناديها كذلك ؟!

استيقظت الشيخ محمد ، وإن لم يبد عليها شىء من مظاهر اليقظة .. فهى فى سباتها ويقظتها سواء ، وارتعش جفناها قليلا ، ثم فتحا عن عينين خابيتين ليس فيهما بياض بل صفرة مشوية بحمرة ، ومضت فترة طويلة قبل أن تستطيع التحامل على يديها والجلوس على المصطبة ، وغطت رأسها وجسدها السمين المترهل بالدثار المكون من آلاف الرقع المشدودة إلى بعضها ، والتى قد صبغتها الأقذار بطبقة قاتمة جعلتها تبدو كأنها قطعة واحدة ، ثم مدت يدها تتحسس الحمصة الموضوعة فى ركبتها الغليظة ، والتى وضعها لها الشيخ عتريس بعد أن شق ركبتها بمشرط ودفن فيها الحمصة ، منبئا إياها أنها ستسحب جميع الأمراض التى فى جسدها .

وأحست المرأة بمكان الحمصة متقيحاً ملتهباً ، ولكنها طمأنت نفسها متمتمة « يضع سره فى أصغر حمصة » .

ثم بدا أهل الحارة يستيقظون تباعا ، فنهض الشيخ أحمد (رجل فى هذه المرة) ، وكان يرقد أسفل المصطبة .. ثم تحسس سيفه الذى كان دائما يضعه تحت رأسه . فلما اطمأن عليه ، دس قدميه فى مداسه ، وألقى تحية مقتضبة على كوم اللحم المغطى بالدثار ، وأخذ سيفه بيمينه واتجه إلى باب المصطبة .

والشيخ أحمد من أهل الجهاد لا يغادره سيفه الخشبى ، ولا أوسمته التى يرصها فوق صدر قفطانه الرث ، وكم له من جولات وصولات ؛ فى « حوارى البغالة »

وبين « عشش الماوردى » ؛ يعدو والغلمان وراءه يجاوبونه على صيحاته بصوت واحد : « الله حى » ، وهو فى عدوه يقف من آن لآخر فيلوح بسيفه ذات اليمين وذات اليسار فينطرح الصبية أرضا ؛ فيعود الرجل إلى سيره تعلو وجهه علامات الانشراح وهو يتمتم : « نصر من الله وفتح قريب » .

ويقال إن الرجل كان فى سابق عهده من طلبة الأزهر المتحمسين ومن قواد الثورة ، وأنه قد أصابته لوثة فأضحى يجاهد بالطريقة التى تحلو له ؛ ماذا يضيره فى ذلك وطريقته فى الجهاد لا تكاد تختلف كثيرا عن سواه فى هذا البلد ؟!! وهو فى نطاق مداركه يعتقد أنه يجاهد ، وهم فى نطاق مداركهم يعتقدون أنهم يجاهدون ، والبلد لا يكاد يستفيد منه إلا بقدر ما يستفيد منهم .

ويعود الشيخ أحمد فى نهاية يومه ، قرير العين ناعم البال ؛ ليلقى بجسده الواهن من فرط الكر ، والفر . أسفل مصطبة صاحبته الشيخ محمد ، وليناولها بعض ما أحسن به عليه أهل البر من أرغفة وقروش .

وتكأكأ على باب الميضة بقية أهل الحارة من أولياء الله الذين وهبوا من البله والعته والعجز ، ما يهيئ لهم كل مسببات الولاية ، فدلفوا إلى الداخل ، وجلسوا القرفصاء صفا أمام الحنفيات ، وتصاعدت فى الجو أصوات المضمضة والتمخط ، نشازا متنافرة ؛ ثم بدأوا يتسربون إلى داخل المسجد .

يا للإنسان العجيب ؛ أكلما سمى به الله ورفعه ، تسامى على الله وترافع ؟! أكلما ذكره الله ، نسى هو الله ؟!!

نظرة منا إلى أولئك المصطفين فى المسجد يركعون ويسجدون ويذكرون الله !! وإحصاء منا لمراكزهم فى الحياة ولما وهبه الله لهم ، يصيبنا بدهشة وعجب ؛ جلهم من الفقراء والمساكين ؛ جلهم ممن نسميهم الطبقة الدنيا ، حتى هذا الأفندى الموظف فى وزارة الأوقاف الذى أطلق لحيته ، لا يعدو أن يكون بين زملائه الموظفين مجنونا أو معتوها .

هذه حال فى دنيانا يجب أن نمعن الفكر فيها ، وظاهرة عجيبة تحتاج إلى بحث

وتمحيص وتحتاج إلى أن تعالج بجرأة ؛ ضعف التقوى ، وتخلخل الإيمان ، كلما سما الإنسان فى الحياة واكتمل ؛ هل هو نقص فى مسببات الإيمان ، أم هو التواء فى تفكير الإنسان ؟ أنا نفسى أؤمن بقلبى أكثر مما أؤمن بعقلى ، فكلما أمعن بى الفكر ، رأيت نفسى أكاد أضل ، وإذا تركت نفسى لإحساس قلبى ازداد بى الإيمان وازددت إحساسا بالله .

وانتهت الصلاة ، وعاد من عاد وبقى فى المسجد من بقى ، كل ذلك وواحد من أهل الحارة لم يغادر مضجعه ، ولم يتحرك من مكمنه ، بل استمر يغط فى نومه ، وقد انكمش وتكور ،حتى لامست ذقنه ركبته ، ولم يزعجه من أهل الحارة ضجيج ولا صياح ؛ بل استمر فى غطيطه حتى تنفس الصبح وملأ الحارة الضياء .

وبدأت الحوانيت تفتح أبوابها تباعا ، وازداد الضجيج والحركة ، فتقلب الجسد المنطوى ، ثم تمطى وتثاءب ، ونهض من مرقده جالسا القرفصاء ، وهو يدعك عينيه بيمينه ويهرش رأسه وظهره بيساره ، ثم بدأ يفتح عينيه الحمراوين المتنفختين شيئا فشيئا ، فوقع بصره على الصبى « كتكوت » صبى المعلم عليش صاحب حانوت « الفول والطعمية » ، أو كما كتب على لافتته « المطعم الوطنى الوحيد » ، ترى من الذى سرق من الآخر لقبه ، مطعم الفول ، أم الزعماء ؟!

وبعد أن أتم الرجل دعك عينيه وهرش جسده وتثاءب مرة أخرى ، ألقى على الصبى التحية :

— صباح الخير يا كتكوت .

— صباح الخير يا عم إبراهيم .

— حضر لى شقة وطعمية .

— لم ندق الطعمية بعد .

ودلف الصبى إلى الداخل وألقى بمركبات الطعمية من فول وبصل وخضر إلى الحجر الموضوع فى ركن الحانوت والذى قد علته القاذورات والأوساخ ، ثم

وضع القضيب الحديدى الثقيل فى الحجر ، وأخذ يلفه ساحقا مخلوط الطعمية حتى أضحى عجينة طرية ، وبعد لحظات أقبل المعلم « عليش » بلاسته وجلبابه مشمرا عن ساعديه ، وبصق بصقتين وقال : « يا فتاح يا عليم » ؛ ثم بدأ فى قلى الطعمية فى بقايا الزيت الأسود الباقية فى الطاسة من ليلة أمس .

كل هذا والرجل الجالس القرفصاء لم يتحرك بعد ، وكل ما فعله هو أن مد يده فدفعها فى صندوق خشبى بجوار الحائط ثم أخرجها ؛ وقد أمسكت بين أصابعها بعض الدخان ، ثم أخرج من أحد جيوبه ورقة سجائر وأخذ فى لف السيجارة وتدخينها .

كان الرجل هو إبراهيم العقب ويكاد الرجل يكون أسلم أهل الحارة جسدا وعقلا ، فليس به من عاهة ، ولا بله ، ولا خبل ؛ ولذا فلم يدخلوه فى زمرة أولياء الله ، لا الساكنين منهم ولا المتحركين ، بل هو يعتبر بينهم من رجال الأعمال ، وإن كان لا يغادر مكانه ليل نهار ؛ ولكنه مع ذلك فى عمل دائب وشغل مستمر ؛ وهو يدير إدارة واسعة من مكانه فى حارة الميضة .. وعندما نقول بإدارته الواسعة .. لا نقولها من باب التهكم أو السخرية بل نعنى حقا أنها واسعة .. وأن لها فروعا فى جميع شوارع القاهرة ، ودروبها ، وباراتها ، ومنتدياتها .. وله موظفون يتسلمون من بعضهم النوبتجية ليل نهار .

وأكاد أجزم أن القارئ سيظننى أنوى أن أجعل من الرجل بعد ذلك رئيسا للمتسولين أو النشالين أو من شابههم ، ولكن حاشاى أن أكون هازلا فإن الرجل كان رجل عمل حقا ، وكان صاحب تجارة : تجارة مشروعة يبيع فيها ويشترى .

كان الرجل هو زعيم « لمامى السبارس » .. فما من جامع أو جامعة لأعقاب السجائر إلا وهو يشتغل تحت إمرته أى يعد موظفا عنده ، وحتى لو لم يكن موظفا عنده فإنه يتناول منه أجره فهو عميل لديه وبضاعته مصيرها إليه . وكان عمل الرجل ينحصر فى تسريح جامعى الأعقاب نظير أجر محدود على ألا يقل ما يجمعونه عن عدد معين من الأعقاب ، فإن زاد عن ذلك فمليم لكل خمسين

عقب ، أما الذين يعملون لحسابهم فيحاسبهم على عدد ما يجمعونه من أعقاب .

وقد قسم القاهرة إلى مناطق ، والمناطق إلى أقسام ، والأقسام إلى شعب ، وليس لأحد أن يعتدى على مكان قسم الآخر الذى خصص له ، وعين لذلك مفتشين ليمروا على المناطق والأقسام حتى يتأكدوا من سير الحال على ما يرام .

أما مقر الرجل أو الإدارة فليست أكثر من صندوقين كبيرين وعدة قصعات ، صندوق تجمع فيه الأعقاب وصندوق يوضع فيه الدخان الفرط . أما القصعات فلتفريط الدخان . وبالإضافة إلى ذلك صندوق صغير توضع فيه السجائر التى يلفها ويبيعها بالجملة أولا بأول .

والعقب يعتبر من أثرياء حارة الميضة المحسودين ، فما من أحد يخدع بمظهره الرث وثيابه البالية .. بل يكاد أهل الحارة يجزمون بأن الرجل قد جمع من تجارته عشرات الجنيهات .. إن لم تكن مئات .. ولكنه حريص بخيل .. يجمد النقود ويضعها فى نطاق لفه حول بطنه .. وقد يكون هذا هو سر نومه متكورا ، لاصقا ركبتيه فى ذقنه .. مخفيا بذلك بطنه وما حولها من كنز ثمين .

ورفع العقب رأسه ونعق صائحا متعجلا فطوره :

— قليت الطعمية يا كتكوت ؟

وأجابه صوت المعلم عليش :

— صباح الخير يا عقب .. كيف ما أصبحت .

— معدن .. ابعت لى شقه وطعميه .

— سلطة لبن .. أو قوطه .

— زى ما يعجبك .

وبعد برهة أقبل الصبى يحمل إلى الرجل طعامه ووقف ينتظر الثمن .. ودفع العقب يده فى صندوق السجاير الصفيح فأخرج منه خمس سيجارات وأعطاها الصبى ، ونظر الصبى إلى الرجل متجهما وسأله :

— خمسه ؟!!

وأجابه الرجل دون أن يرفع إليه بصره :

— أعقاب بحارى .. يابن القديمه . إذا لم يعجبوك اتركهم وخد سبعه سمسون .

— بحارى نظيف ؟.. غير مخلوط ؟!!

— نظيف مائة فى المائة .. ليس عندنا خلط .

— إذاً هات سيجارة لقد وضعت لك طعميتين زياده .

ومد الرجل يده فى إحدى القصعات وأعطى الصبى منها عقبين .. ولكن الصبى قذف بهما إلى القصعة ، وقال غاضبا فى شىء من الأنفة والكبرياء :

— قالوا لك إنى برمرم ؟

و لم يسع الرجل بعد ذلك إلا أن يخرج للصبى الأرستقراطى سيجارة كاملة ، وأعطاها له مغيظا قائلا :

— خذ .. خساره فى جسدك النحس .

وهنا انطلقت فى الجو صيحة رنانة من المعلم عليش ينادى فيها الصبى ، فدس السيجارة فى جيبه وأسرع إليه .

و لم يكد الرجل يغرس أسنانه الطويلة السوداء فى رغيف الخبز حتى سمع صوتا رفيعا يقول :

— بسم الله .. يا معلم .

و لم يرفع الرجل رأسه ، و لم تبطل حركة فكيه .. بل قال وهو يزدرد لقمة كبيرة :

— اتفضل .

— أتريد الدود الآن ؟

— بأربعين .

— قلنا بخمسين .

— أربعين فقط .

ـــ لنجعلهم خمسة وأربعين ، والله هذا لأجل خاطرك .

ـــ قلت أربعين .

ـــ إنجليزى ؟

ـــ النصف والنصف .

ـــ سأحضره لك الآن ، أجاهز أنت ؟

جرت هذه المناقشة ، والعقب لم يرفع عينيه .. ولم يكف عن المضغ ، ولاشك أن المناقشة تحتاج لشىء من الشرح حتى تقرب إلى الأفهام .

كان الطرف الثانى فى المناقشة هو الأوسطى جاد ، وإذا أردنا الاسم الكامل فهو : راجى عفو القهار الغفور الأوسطى جاد عبد الصبور صاحب صالون الحلاقة والصبغة العجيبة ، والدود الطبى .

وكان العقب قد شعر منذ يومين بصداع يشعل رأسه ، وقد استشار الشيخ محمد ، فأحالته على الشيخ عتريس الذى حاول أن يضع له حمصة ، ولكن الرجل رفض عندما رأى ما فعلته الحمصة بركبة الشيخ محمد ، ولم يجد بدا من أن يلجأ إلى الأوسطى جاد ـــ وهو أعلم أهل الحارة بعلم الطب ـــ وإن كان قد منعه عنه فى بدء الأمر ما يعلمه من شدة طمعه ، وأنه لا يوزع الاستشارة بالمجان ، ولكن اشتداد الصداع ، وخوفه من الحمصة ، اضطره إلى أن يلجأ إليه أخيرا .

وقد حدثت كل هذه الاستشارات ، والرجل قابع فى مكانه ، فأهل الحارة لا ينتقل بعضهم إلى بعض ، بل يستعملون حناجرهم وألسنتهم كوسيلة وحيدة للاتصال الداخلى .

وأشار عليه الأوسطى جاد باستعمال الدود ، لمص الدم الفاسد الذى يسبب له هذا الصداع وأنبأه أن لديه « حتتين » هدية ، يفوقان الثعابين حجما وقوة ، وبدأ فى التفاهم على السعر ، وطلب الرجل ثمنا للدود ستين ، (ستين سيجارة طبعا) ، ولكن العقب أصر على ألا يدفع أكثر من أربعين ، وصمم على احتمال الصداع ، حتى أتاه الرجل يعرض عليه القبول فى الصباح .

ولم تمض هنيهة حتى أقبل الأسطى جاد بالدود ، وبدأت عملية مص الدماء .. ولم يكف العقب خلال عملية المص عن تأدية عمله .. بل استمر يقابل زبائنه وعملاءه .. ويعد الأعقاب ، ويفصل الأصناف الممتازة منها على حدة ، وبين آونة وأخرى يجيب على الإخوان المتسائلين : سلامتك .. كفى الله الشر . بقوله : « الله يسلمك ويبقيك » وهو يعلم أن المتسائل لا يقصد بقوله أكثر من « يا ليتها كانت القاضية » ، ويعلم كذلك أنه لا يعنى بإجابته أكثر من « العقبى لكم » .

وانتهى اليوم ، وبدأت الحركة حول العقب تخف رويدا رويدا ، ولم يبق بجواره سوى صبية المختار دقدق الذى يطلقه طول اليوم للتجسس والتجول ، حتى يأتيه بأخبار الشغل أولا بأول .

وبدأ الاثنان فى العد ، عد أرباح اليوم .. ثم انطلق دقدق لتجميد « الفكة » وتحويلها إلى ورقة كبيرة يسهل على العقب حملها فى منطقته ، وعاد الصبى بعد هنيهة فتركه الرجل أمام صناديق البضاعة ودلف إلى الميضة لقضاء حاجة .. ولإخفاء النقود ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة فى خلال اليوم الذى يدخل فيها العقب إلى الجامع . فما كان ليهتم بما يقوله عنه أهل الحارة من أنه كافر زنديق .

وانتهت صلاة العشاء ، وبدأت الحوانيت تغلق ، وأخذ السكون يسود الحارة ، وتكور جسد العقب ، وأغلق عينيه ، واضطجع أولياء الله المعاتيه فى مراقدهم إلا واحدا أقبل يقرع أرض الحارة بسيفه الخشبى ويصيح بأعلى صوته : « وحدوه » لقد كان الشيخ أحمد عائدا من جهاده .

***

هذا يوم عابر من حياة عم إبراهيم العقب فى حارة الميضة ، منذ خمسة عشر عاما ؛ ولست أبغى أن أتبع حياته بعد ذلك يوما يوما ، رغم ما فى حياته من عبر وتسلية ، ولكنى سأقفز بذهنى قفزة طويلة أقطع بها من حياته عشر سنين ، وهى مدة لو تعلمون طويلة فى حياة إنسان .. وإن كان الذهن يستطيع قطعها الآن فى لمحة عين .

لن نحاول أن نبحث عنه فى حارة الميضة ، فقد خلا منه مكانه .. لن نحاول أن نتبع أحدا من أهل الميضة ، فقد اختفوا جميعا من أفق حياته ، اللهم إلا دقدق الذى ما زال تابعه الأمين .

ولكن دعونا نجرى فى أعقابه حتى نجده .. جالسا فى مكتبه فى الناصرية .. وقد طرأ على مظهره تحول كبير فاختفت الطاقية السوداء المطينة من فوق رأسه وحلت محلها عمامة مهيبة ، بيضاء حمراء ، خلعت عليه رونقا وبهاء ، وقفطان حريرى وجبة من الجوخ الثمين ، وبدا الرجل فى جملته وقورا مهيبا ، عليه مظاهر النعمة والثراء واضحة جلية .

ويدخل عليه دقدق أفندى ليعرض عليه حساب اليوم .

وبدأ فى قراءة التفاصيل والرجل مصغ فى انتباه شديد .

كان الرجل قد أخذ تعهد الكرتة فى الجيش الإنجليزى و « الكرتة » هى الزبالة وبقايا أطعمة الثكنات ، فقد بدأ يهجر مكانه فى حارة الميضة منذ أن بدأت الحرب .. وبدأ كذلك يخرج النقود المتجمعة من نطاقه .

و لم تكن الزبالة تعنى زبالة حقا ، فقد كانت بفضل الأوراق التى يدفعها دقدق فى يد الطباخين أو الصاجن الإنجليزى ، تجعل الزبالة تحوى كنوزا من علب الأطعمة المحفوظة ، والسجاير ، والبطاطين ، والأسلحة .. وكل ما يخطر على بال من خيرات جيوش الحلفاء .

وهكذا تحول العقب من تاجر سبارس إلى تاجر زبالة ، لا يهم الرجل وضاعة المظهر أو تفاهة الاسم ، ما دام اللقب يدر عليه مالا وفيرا ، وما دام رصيده من النقود يقفز إلى أعلى بخطوات سراع .

وينتهى دقدق من سرد الحساب ، ويصمت ، وتبدو عليه علامات القلق كأنه يود أن يسرد إلى معلمه شيئا ، ولكنه يخشى العاقبة ، و لم يخف ذلك على العقب فسأله فى قلق :

— مالك ؟

— لاشيء ، فقط كنت أريد أن أقول ..

— تقول ماذا ؟

وتردد دقدق برهة ثم تشجع وقال :

— كنت أود أن أقول لك : إنه من الخير أن تحاول الظهور فى المجتمع ، حتى يتحدث عنك الناس .

ورفع العب حاجبيه فى دهشة متسائلا :

— وكيف ؟

— تبرع فى المشروعات الخيرية فيكتبون اسمك فى الجرائد ، وبذا يشتهر أمرك .

وفكر الرجل وبدا عليه الاقتناع فقال :

— عندك مائة وخمسون قرشا الباقية من حساب الأمس ، يمكننا أن نتبرع منها .

— مائة وخمسون قرشا !! حيلك ، حيلك ! يجب أن تعمل حسابك على الأقل على أربعمائة ، خمسمائة جنيه .

وبدا على الرجل انزعاج شديد ، ونظر إلى دقدق نظرته إلى لص أو مجنون ، ولكن الفتى لم ييأس ، وأخذ يحاول إقناعه بأن الغرض من التبرع ليس وجه الخير ، ولكنه وجه الشهرة والظهور ، فستدر عليه هذه الشهرة بعد ذلك ربحا وفيرا .

وبدأ اسم إبراهيم العقب يظهر بعد ذلك على صفحات الأهرام : مائة جنيه للعلمين ، مائتين لمشروع البر ، ثلثمائة لمشروع الحفاء ، وهكذا ..

ثم بدأ اسمه يقترن بكلمة الوجيه ، ولم تكن تلك التبرعات لتؤثر على ماليته ، فقد أخذت تتدفق عليه النقود بلا حساب ، من التعهدات ، ومن السوق السوداء ، ومن كل حدب وصوب ، يرزق من يشاء بغير حساب ، ولقد كان هو « من يشاء » .

ولنترك الوجيه إبراهيم العقب تاجر السبارس والزبالة منهمكا فى تجارتـه وأمواله ، وتبرعاته ، ولنقفز بعد ذلك قفزة بسيطة ، سنتين فقط لنبحث عنه ، فنجده ما زال أمام مكتبه بالناصرية بوقاره ، وهيبته ، وعمته ، وجبته ، ونجد أمامه « دقدق » وقد بدا عليه كمن نوى أمرا جللا ، وقال دقدق :

— ألا تنوى أن تدخل الانتخابات ؟

— انتخابات !! أنا أدخل انتخابات !! أجننت !!

— ولم ؟

— أنا لا أعرف فك الخط ، فكيف تريدنى أن أجازف بدخول الانتخابات !

— يا معلم ، المسألة لا تحتاج لفك الخط ، أنت تاجر مشهور ، واسمك كالطبل .

— هل تريد أن أنضم لحزب من الأحزاب ؟

— أبدا ، ادخل مستقل .

— ولكنهم لن يساعدونا .

— الفلوس تساعدك . توكل على الله ، وعلى محسوبك .

وبعد يومين لم يكن هناك جدار فى حى السيدة لم تلصق عليه اللافتات .

« انتخبوا المرشح المستقل، إبراهيم العقب ، لكى تحصلوا على الغذاء والكساء . انتخبوا إبراهيم العقب » .

ولأول مرة دخل إبراهيم العقب جامع السيدة للصلاة ، وليس لوضع النقود فى منطقته ، بدأ طوافه فى نواحى السيدة وطاف فيما طاف بحارة الميضة ، ولم يكن يخشى من طوافه شيئا ، فقد باد أهل الميضة وعفت آثارهم ، وصعد معظم أولياء الله إلى الله ، إلا الشيخ أحمد بسيفه ، فقد كان ما يزال فى جهاده وقد اندمج مع الهتافين وراء العقب .

وجاء يوم الانتخاب ؛ وكان دقدق قد أحكم عمله خير إحكام ، فقد استأجر اللوريات لنقل الناخبين إلى لجنة الانتخابات ، وقد قسم الحى إلى مناطق

وأقسام وشعب ، تماما كما كان يفعل فى قديم الزمان . وكان دقدق أحرص من أن يعتمد على ذمة الناخبين وعلى وعودهم ، فاتبع لضمان أصواتهم طريقة مثلى .

وقف أمام لجنة الانتخاب ومعه رزم من الأوراق المالية ذات الخمسة والعشرين ، والخمسين والمائة قرش ، وكان قد قسم الناخبين إلى ثلاث درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة ، فالدرجة الأولى جنيه ، والثانية خمسون قرشا ، والثالثة خمسة وعشرون .

وكان دقدق يمزق الورقة النقدية نصفين يعطى الناخب نصفها عند دخوله ، ولا يعطيه النصف الثانى إلا بعد خروجه وبعد التأكد من أنه منح صوته العقب .

وظهرت نتيجة الانتخابات ، فكانت فوزا ساحقا « للعقب » .

وهكذا فاز العقب .. لا مبادئ ، ولا مواهب ، ولا كفاءات ، ولا عبقريات ، ولا علم ، ولا شيء أبدا ، سوى النقود .

فليحيى العقب ، وليحيى قانون الانتخابات ..

ترى ما الذى دفع بكل تلك الذكريات فى رأسى .. وما تلك الصورة التى مرت بعينى .. فأيقظت ذهنى وأهاجت به ذلك الماضى الهاجع الراقد .

كنت أجلس اليوم فى شبرد مع صاحب لى .. فرأيت صاحبى قد نهض فجأة وتقدم إلى شيخ مهيب فسلم عليه باحترام شديد ، وسلم على شخص يسير بجواره ، وتحدث معه برهة ، ثم عاد إلى وقال فى شيء من التفاخر :

— هذا إبراهيم بك العقب .. عضو مجلس النواب ... ألا تعرفه ؟!

— أعرفه .

ولم أقل أكثر من ذلك .. ووجدتنى أنظر إلى الرجل وقد اتخذ مكانه بتؤدة وعظمة على إحدى الأرائك ، وجلس بجواره ذلك الشخص (دقدق أفندى طبعا) ، وأخذت أرقب الرجل بطرف عينى ، فرأيته يخرج من جيبه علبة دخان ، فيخرج منها بأصابعه بعض الدخان ، ويأخذ فى لف السيجارة .

وإلى هنا ، ولم يكن فى الأمر شيء غير طبيعى ، فكثير من كبار القوم يفضلون

لف السجاير بأنفسهم .

وانتهى الرجل من تدخين سيجارته ، و لم يبق منها إلا عقب صغير رأيته يطفئه فى الطقطوقة ، ولكنه بدلا من أن يلقى به فيها . رأيته يتلفت حوله ، ثم وجدت يده تتسلل بالعقب إلى جيبه .

و لم يره أحد ، سواى ، ودقدق ، الذى بدا عليه كثير من الامتعاض ، ولكنه سلم أمره لله .

ووجدتنى أهتف دون أن أدرى :

— برافو .. نابغة الميضة !!

ميمون الجبل

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنه قد مضى أربعة أعوام وأنت تفعل « سلام أسيادك » فما بالكم بأسيادك أنفسهم الذين مضى عليهم ستون عاما وهم لا يفعلون سوى « سلام أسيادهم » . ما بالك بالأسياد الذين يتولون أمورنا ويتبدلون علينا الواحد بعد الآخر فلا يفعل كل منهم سوى « سلام أسياده » فلابد لكل منهم من أسياد يؤدى لهم التحية ، ويتلقى منهم الوحي والإلهام .

ميمون الجبل يلعب ، ودق الرجل دقتين على الدف فى يده ، وبدأ القرد يعرض على جمهرة الصبية ألاعيبه وحركاته .

كانت تلك آخر جولات ميمون والعنزة وصاحبهما فقد انتهى اليوم أو كاد ، وبدأ الثلاثة يولون وجوههم شطر الدار ، أو على الأصح ، شطر الجحر الذى يتهيأ لهم فيه المضجع والمأوى .

وسار ميمون مطاطئ الرأس ، بادى الوهن ، وقد شرد منه الذهن ، وتاه الفكر : لقد بدأ المسكين يمل حياته ، وتملكته السآمة من طول العيش على وتيرة واحدة .. ضيق فى ضيق ، وملل فى ملل .. نفس المشوار يقطعه كل يوم حتى تكل قدماه ، ونفس الحركات التى يفعلها فى كل وقفة .. هى هى ، لا تجديد ولا ابتكار ، ومع ذلك فما زالت تضحك هؤلاء الحمقى الذين يلتفون حوله ، ما أغباهم وما أضيق عقولهم !! ماذا يضحكهم من تلك الحركات التى يحاول هو تقليدهم فيها ؟ إنه ما رأى مخلوقا يضحك على نفسه ومن نفسه ، كابن آدم يدعى

بعد ذلك أنه انحدر من سلالة القرود ، والله إن القرود لبريئة منه ، ومن سخفه وغباوته . وقد يكون العكس هو الصحيح ، والمعقول ، فلاشك أنه إذا كان هناك أية صلة بين الإنسان والقرد ، فإن القرد هو الذى انحدر من سلالة الإنسان ، وإن ابن آدم ، قد تطور وارتقى فصار قردا .

وتوقف الثلاثة على الإفريز برهة ريثما تمر العربات فيستطيعون عبور الشارع إلى الناحية الأخرى .. ورفع ميمون رأسه ناظرا إلى عجلات العربات المتدفقة كالسيل ، المنطلقة كالريح ، وهز رأسه فى دهشة ، وسأل نفسه : فيم انطلاقهم بمثل هذه السرعة ، وعلام تلك العجلة والاندفاع ؟!

ما ضرهم لو اتأدوا وتمهلوا ، وأراحوا واستراحوا . ما ضرهم لو فعلوا فى يومهم نصف ما يفعلون ، وأخذوا من فعلهم نصف ما يأخذون ، وبخرجوا من حياتهم بنصف ما يخرجون .

ماذا تراهم يفعلون فى يومهم ؟. شر وخير ، وشرهم أكثر من خيرهم . ماذا تراهم يأخذون من أفعالهم ؟. ألم ولذة ، وآلامهم أكثر من لذاتهم .

بماذا تراهم يخرجون من حياتهم بلا شىء ، وبنصف اللاشىء ، لا شىء ، فعلام إذًا اللهفة ، ولم التعجل ؟!

وانتهز الثلاثة فرصة خلو الطريق من العربات لحظة ، فانطلقوا إلى الجانب الآخر ، وعبروا شارع الملكة نازلى من الجانب الأقرب إلى العباسية إلى الجانب الأقرب لمستشفى الدمرداش ، وساروا على الإفريز المجاور للمستشفى متجهين إلى عشش الترجمان .

ودلفوا إلى الحى ، فقوبلوا بتحيات متناثرة من هنا وهناك ، وأخذ عبس يرد التحية بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن ميمون وزنوبة .

ولم يتجه عبس إلى البيت رأسا ، بل عرج على منتدى الحى ، ومجمع السمار ، الذى يحوى بين جوانبه : قهوة ، ومطعما ، وصندوق غازوزة ، ومحل فاكهة : قصب وجزر وبرتقال أخضر ، وملانة ، وخص فى الشتاء ، وسرت شمام ،

وعجور فى الصيف .

أقول إن المنتدى جمع بين جوانبه ، والواقع أن كلمة جوانبه ليست إلا من باب الاستعارة ، فالمكان لا جوانب له ، بل قائم فى العراء ، والأصل فيه هو صندوق الغازوزة الأخضر الخشبى الكائن على ناصية قطعة أرض فضاء مليئة بالقمامات .

وقد امتد الصندوق الخشبى ، ونما ، وتفرع ، فوضعت بجواره أربعة أعمدة من الخشب تحمل سقيفة من الخيش ، وسدت جوانب المربع بعض قطع الصاج المعوج ، ثم وضع فى أحد أركانه موقد لعمل القهوة والشاى ، ولإيقاد جمر الجوز ، ووضع فى قصعة مليئة بالماء القذر خليط من الكوبات والفناجين .

هذا هو جناح القهوة ، أما جناح المطعم فنجده فى الركن المقابل الأقرب إلى الطريق ، وهو وابور غاز داخل صفيحة فتحت فى أحد جنباتها فتحة تتسع لإدخال الوابور ، ووضع فوقها الفول المدمس ، وبجوارها وابور آخر وضعت فوقة طاسة مليئة بالزيت الوسخ الذى عامت على سطحه قطع الطعمية وقد أخذت تطشطش ويتناثر منها رذاذ الزيت .

وبجوار الوابور قصعة وضع فيها بصل أخضر ، وكرات وليمون ، وقصعة أخرى حوت أطباقا سوداء وبضعة أرغفة .

فإذا تركنا جناح المطعم ، واتجهنا إلى جناح الفاكهة والحلوى ، وجدنا قفصا مقلوبا وضعت عليه قطع القصب وقد قسمت إلى قسمين ، قسم ذو عقلتين ، وقسم ذو ثلاث عقل ، وبجواره قفص رص عليه البرتقال الأخضر الصغير ، هذا هو قسم الفاكهة . أما قسم الحلوى فقد تجمع كله فى قصعة حوت بعضا من نبوت الغفير ، وبراغيت الست ، وخلف القصعة والقفصين جلست الست نفسها صاحبة البراغيت ، وهى أم حنفى مديرة قسم الفاكهة والحلوى ، وهى امرأة ذات وجه ، من الخطأ أن يسمى وجها ، وجه تآمر عليه الجدرى والقبح ، ففعلا به ما فعلت عوامل التعرية بالآثار الغابرة وأخرجته عن صفته كوجه .

أما بقية الأقسام فيديرها الجرمون — صاحب المحل — بمساعدة صبيه زقلط ،

والاثنان أشبه بإبليس وصبيه ، فى الشر والخبث واللؤم والأذى .

وجلس « عبس » على حجر أمام صندوق الغازوزة وطلب جوزة ، وأطلق العنان لميمون وزنوبة (العنزة) ، وقبع ميمون فى مكانه ، فقد كان فى حالة تعب وقرف ، أما زنوبة فقد انطلقت إلى كوم من القمامة تعبث فيه بأنفها .

وألقى « عبس » التحية لأم حنفى :

ـــ مساء الخير يا أم حنفى .

ـــ اسعد مساك يا بنى ، كيف الحال ؟

ـــ رضا .

ـــ وميمون ؟

ونظر إليها ميمون بطرف عينيه ، متألما من قبحها ، ولم يكلف نفسه مشقة الالتفات إليها ، ورد عبس بالنيابة عن ميمون :

ـــ والله متعب بعض الشىء ، لست أدرى ما به ؟

ـــ أعط له حقنة شيح .

وكتم ميمون غيظه من بلاهة المرأة ، ومن حشرها نفسها فى كل ما لا تفهمه ، حتى الطب ، وسكت على مضض .

وانتهى عبس من شد حاجته من الأنفاس ، وقام يدندن : « جوزه من الهند ومركب عليها غاب » . ومد يده فسحب السلسلة التى ربط بها ميمون ، ثم نادى على زنوبة واتجه بهما إلى البيت .

كان البيت لا يزيد على حجرة من الطين ، ما زال ميمون يذكر كيف شيدها عبس ، وكيف خمر الطين فى حفرة ، وأخذ يقطع منه بيديه كتلا يلفها بالقش ويسميها جالوص ثم يضع الجالوص فوق الجالوص ، حتى أقام الجدران الأربعة ولم يرتفع بها حتى تصل إلى علو هامته ، بل نزل بأرض الحجرة من الداخل حتى يوفر على نفسه مشقة الارتفاع بالجدران ، وأصبحت الغرفة أشبه بقبر حفر فى الأرض ، وأخيرا وضع عليها سقفا من سعف النخيل .

هذه هى الدار من حيث البناء . أما من حيث الأثاث ، فقد كان كل ما فيها من لون الأرض والجدارن : حصير فرش فى أحد الأركان وكوم من الأغطية السوداء الممزقة ، ووسادة من القطن المسلح ، فقد كانت من فرط صلابتها كأنما قد خلط بقطنها كمية لا بأس بها من الزلط والحديد والأسمنت .

وفى ركن الغرفة وضع صندوق حوى كل ما يملكه من أمتعة ، وخرق بالية . وعلى أحد الجدران علق رف وضع عليه مصباح غاز بلا زجاجة .

ودلف الثلاثة إلى الحجرة ، فقد كانت مأوى لهم جميعا . وكانت روح الديمقراطية تسرى فى الحجرة بأجلى معانيها ، لا فرق بين إنسان وقرد وعنز . شركاء فى المرقد والمأكل والملبس .

وألقى عبس من فوق كتفه بالخرج الذى حوى أدوات الشغل ، ووضع الرق على الرف ، ثم تربع فوق الحصيرة ، وأخرج من أحد جيوبه صندوق المعسل وبدأ فى لف سيجارة ، وتمددت زنوبة على الأرض ، وأغمضت عينيها فى شبه إغفاءة ، وجلس ميمون على مؤخرته وأخذ يحك بيمناه رأسه موجها إلى عبس نظرات حانقة ساخطة .

ولم يغب عن عبس معنى تلك النظرات ، وأدرك أن فى جوف ميمون ثورة مكبوتة ، فقال له ، وهو يلصق ورقة السيجارة بطرف لسانه :

ـــ ما بك ؟

ولم يكن هناك أسهل من التفاهم بين ميمون وصاحبه ، وبينهما وبين العنز ، فقد اصطلح الثلاثة على لغة للتفاهم هى خليط من حديث الإنسان ، ومأمأة العنز ، ولهجة القردة . ونظر ميمون إلى صاحبه فى غير اكتراث ، وأجابه فى يأس :

ـــ لا شىء ...

ـــ إذا فما بالك تتململ كأنه عليك البيضة ؟!

ولم يجب ميمون ، بل انطلقت من صدره زفرة حارة ، وعاد عبس يتساءل :

ـــ قل . ما بك ؟

ـــ أيرضيك هذا الحال ؟

ـــ ما له هذا الحال ؟. أى شىء لا يرضيك فيه ؟. عطشان ؟ جعان ؟ ناقص نوم ؟. أحمد ربنا « وبوس إيدك وش وضهر » . لا شغله ولا مشغله ، اللهم إلا هذه الحركات التافهة التى لا تكلفك جهدا ولا مشقة : « سلام أسيادك » ، « عجين الفلاحة » ، « نوم السكران » . ، أهذا كل ما يتعبك ؟

ـــ أجل هذا كل ما يتعبنى .. هذه التفاهة .. وهذا الروتين .. أربع سنوات وأنا ألف بك الدروب والحارات . أربع سنوات .. أى ألف وخمسمائة يوم بمعدل خمسين مرة فى اليوم ، فلو حسبت أعمالى لاتضح لك أننى أتيت ثلاثين ألف « سلام أسيادك » وثلاثين ألف « عجين الفلاحة » .. وثلاثين ألف من كل هذه السخافات التى لا يستطيع عقلك الضيق أن يبتكر سواها .. ترى متى تكف عن هذا الجمود .. وتخرج عن ذلك الركود .. ؟ .. متى يتفتق ذهنك المظلم عن أشياء غير هذه التفاهات ؟.. أتظن أننا سنقضى العمر لا نفعل أكثر من : سلام أسيادنا .. وعجين الفلاحة ؟

وأشعل عبس سيجارته من المصباح الغازى . ثم نظر إلى ميمون ورفع حاجبيه الكثيفين وتساءل فى دهشة :

ـــ ماذا تريد أن تفعل إذا ؟ قرد وقرداتى !! ما تريد منهما أن يفعلا أيها الأبله ؟... يشكلان الوزارة ؟.. يؤلفان حزبا ؟.. قرد وقرداتى !! ماذا يمكن لهما أن يفعلا أكثر من : سلام أسيادك .. وعجين الفلاحة ؟.

ونظر إليه ميمون وأجابه فى لهجة مليئة بالسخرية والازدراء :

ـــ ألا يمكن أن يفعلا سوى ذلك ؟.. أهذا كل ما فى وسعهما ؟

وضاق الرجل ذرعا فصرخ فيه :

ـــ أجل ... هذا كل ما فى وسعهما ... منذ أن وعيت على هذه الحياة ... وأنا أعرف أن القرداتى والقرد ، لا عمل لهما إلا أن يسحب أولهما الآخر ويأمره بأن

يفعل : سلام أسياده ، وعجين الفلاحة .. وليس على القرد إلا السمع والطاعة ، ما رأيت قردا يتأفف من عمله كما تتأفف ...

ـــ أنا لا أتأفف .. أنا أريد ثورة على هذه التقاليد البالية ، والأوضاع القديمة . كل شيء سائر فى طريق التطور والتقدم إلا نحن .. العربات الكارو ، والسوارس ، قد تطورت إلى سيارات وطائرات .. والسينما الصامتة قد نطقت ، والسيوف قد تطورت إلى دبابات وطائرات وقنابل ذرية ؛ كل شيء قد تغير وتبدل إلا نحن ، ما زلنا نفعل سلام أسيادنا .. لم نتقدم قيد أنملة !!

وصمت عبس ؛ وأخذ يحك رأسه بيده مفكرا ، ثم قال بعد برهة :

ـــ ولكن لم تقارننا بتلك الأشياء التى لا صلة لنا بها : السوارس ، والطائرات ، والقنبلة الذرية ؛ ما لنا ولهذا ؛ لم لا تقارننا بأشباهنا ونظائرنا .. لم لا تقارننا بهذ البلد الذى نحن جزء منه .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن كل شيء فيه لم يتقدم قيد أنملة ؛ لقد ضقت ذرعا إذ مضى عليك أربع سنوات وأنت لا تفعل سوى عجين الفلاحة ؛ فما بالك بالفلاحة نفسها التى مضى عليها عشرات الأعوام وهى لا تجد ذلك العجين الذى تقلدها فى عجنه .. ما بالك بالفلاح الذى قضى مئات الأعوام وهو لا يجد لشربه سوى الماء العكر المخلوط بكل ما فى جعبة عزرائيل من أمراض وجراثيم ؛ لا يدقون له طلمبات المياه النظيفة إلا عند كل وباء ؟. ما بالك بالفلاح الذى مضت عليه مئات الأعوام يضرب الأرض بفأسه لينبت منها ثمرا شهيا يطعمه لأولئك الراقدين فى فراشهم ، الرافلين فى الخز والديباج ، الذين تبدو على وجوههم نضرة النعيم ، الذين لا يفعلون شيئا سوى المضغ ، لا شيء أكثر من تحريك الأسنان ، لمضغ الثمار ومضغ الأموال ؛ والمسكين الذى كد وشقى ، ما زال محنى الظهر ، يضرب الأرض بفأسه ، أنهكه العرى والجوع والمرض ، ينتظر أن يلقى له السادة بعض الفتات ، أو بعض النوى وبعض القشور ؛ ولكنهم يأبونها عليه . ويقولون له :

اصبر وانتظر ؛ نحن جادون من أجلك . ومن أجل رفاهيتك ؛ ألا ترى اللجان التي نعقدها ؛ والجهد الذى نبذله ؟

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنه مضى أربعة أعوام وأنت تفعل « سلام أسيادك »فما بالك بأسيادك أنفسهم الذين مضى عليهم ستون عاما ، وهم لا يفعلون سوى « سلام أسيادهم » ؛ ما بالك بالأسياد الذين يتولون أمورنا ويتبادلون علينا ؛ الواحد بعد الآخر ؛ فلا يفعل كل منهم سوى « سلام أسياده » ؟ فلابد لكل منهم أسياد يؤدى لهم التحية ويأتمر بأمرهم ، ويتلقى منهم الوحى والإلهام ... ما بالك بالخطب التى يتلونها منذ عشرين عاما كالبيغاوات ، يكرر كل منهم ما قاله سلفه ، حتى والله ليخيل إلى أن كلا منهم يتلو ما كتب دون أن يفهم له معنى ، فهو يتلوه لمجرد التلاوة ، إذ يعتبر أن واجبه قد انتهى عند حد التلاوة ، ولا أكثر من هذا .

لقد ضقت ذرعا يا ميمون لأنك قد مضى عليك أربعة أعوام ، وأنت لا تفعل سوى « نوم السكارى » ، فما بالك بمجلس « النوام » الذى مضى عليه أكثر من عشرين عاما وهو يغط فى نومه ، يتبادل عليه « النوام » الذين يجعجعون فى خارجه ، فلا يكاد يحتويهم المجلس ، حتى ينزل عليهم — كما يقولون — سهم الله ! ونرى الأحرار الذين نووا أن يحرروا العبيد قد أضحوا عبيدا وننصت إليهم علنّا نسمع منهم صوتا ، فلا نسمع إلا الشخير والزفير !! ويظلون يجاهدون فى نومهم ، حتى يوقظهم صوت سقوط السادة ، فيخرجون فى أذيالهم ؛ ليدخل غيرهم ويستمتع بالنومة ؛ والأربعين جنيها ؛ وأبونيه السكة الحديد ، وقضاء الحاجة عند السادة .

أترانا يا ميمون خيرا من هؤلاء ؛ وهؤلاء ؟

أأصابك الملل من أربعة أعوام ؛ كيف إذاً بأصحابنا الذين مضى عليهم ستون عاما وهم يقولون : إنهم سيجلون عنا ، وعن أراضينا ؛ ومع ذلك ما زالوا باقين حتى يومنا هذا ؟ لا . . لا . . يا ميمون ، يجب أن تكون أكثر عقلا ، وأن ترضى بما نحن فيه .

***

وصمت عبس ، واستلقى على الحصيرة واضعا رأسه على الوسادة ، ومد ساقيه ، وتمطى ؛ وقد أحس بالرضا من خطبته التى حاول بها أن يقنع ميمون ، وفتحت « زنوبة » عينها برهة ، وانتقل بصرها ما بين عبس وميمون ، ثم عادت إلى نومها الهادئ ، وساد الصمت فترة ، وبدا على ميمون أنه قد استغرق فى تفكير عميق ؛ وأخيرا رفع رأسه وقال فى إصرار :

— إنى ما زلت أصر على أنه لابد لنا من التجديد والابتكار ؛ بل إن حديثك هذا قد زادنى إصرارا ، وزادنى رغبة فى الخروج عن ذلك الركود الذى نحن فيه ؛ أجل ، لِمَ نحاول أن نتشبه بأولئك الخاطئين . لم لا نعطيهم مثلا صالحا .. بل لِمَ لا نحاول أن نوقظهم من سباتهم . لِمَ لا نحاول أن نظهر للناس عيوبهم وننتقد أخطاءهم ؟!

— يا ميمون دعنا فى حالنا ، دعنا نأكل عيشا .

— ومن قال لك إننا لن نأكل عيشا .. أؤكد لك أننا سنأكل « بقلاوة » لو أطعتنى .. وفعلت ما أشير عليك به .

— نم يا بنى ربنا يهديك ، لا تجلب لنا المصائب .

— وماذا يضيرك فى أن تستمع إلى ، وتنصت إلى المشروع الذى سأعرضه ، فإن لم يعجبك ، فإنك لن تخسر شيئا .

وقال عبس بشىء من الملل :

— تكلم !

— أولا نبطل كل هذه الحركات التافهة التى نقوم بها الآن .. ونطلقها إلى غير رجعة ، ونسرح زنوبة فلن تكون بنا حاجة إليها بعد الآن .

فتحت زنوبة عينيها ببطء ونظرت إلى عبس ووجهت إليه القول دون أن تكلف نفسها مشقة النظر إلى ميمون :

— نم يا عبس ، نم .. لا تستمع إلى هذا الأحمق المجنون .. إنه سيؤدى بك إلى التهلكة .

ثم وجهت القول إلى ميمون :

ـــ هل تنوى بسلامتك أن تقف أنت بقوائمك الأربع على البكرات ، يا لك من مغرور ، أتظنها أمرا سهلا . لم لا تجرب ؟ جرب ، حتى تقع على رأسك فتتهشم وتريحنا من وجهك القبيح ومن أفكارك السخيفة .

وأجابها ميمون باحتقار :

ـــ عودى إلى نومك أيتها الحمقاء ، ولا تتدخلى فيما لا يعنيك ، هل تظنين أن الوقوف على البكرات هو كل ما فى الحياة ؟!

ثم عاد يوجه القول إلى عبس :

ـــ قلت لك إننا سننسى هذه الحركات التافهة ، ونبدأ فى حركات أخرى أرقى وأسمى . إنه مشروع ضخم ، يحتاج إلى مران ، وإلى تدريب ، وإلى رأسمال ، ويخيل إلى أن الأمر قد ينتهى بنا إلى أن نجعلها شركة مساهمة ، نستعين فيها ببعض كبار الأسماء .

ـــ أتعنى بعض كبار الرجال ؟

ـــ لا .. لا .. إن ما أعنيه بالضبط ، هو كبار الأسماء ، فكبار الرجال يندر وجودهم فى هذا البلد ، وإن وجدت واحدا منهم فلن يقبل القيام بما نطلبه منه .

أما كبار الأسماء وأصحاب الرتب فهم كثيرون ، وهم لا يزيدون على مجرد أسماء رنانة ، نقرأ عنها فى كل مناسبة ، ويشتركون فى كل عمل ، وهم فى حد ذاتهم لا شىء ، لا شىء أبدا ، لا يتمتعون بقدر من الذكاء أو الشخصية أكثر مما تتمتع به « زنوبة » .

ولو منحنا « زنوبة » ألقابهم ووضعناها فى مراكزهم لما أحس أحد بالفرق بينها وبينهم .

وفتحت زنوبة عينيها وسألت ميمون :

ـــ هل يستطيعون الوقوف على البكرات ؟

ـــ لا أظنهم فى مثل مهارتك ، على أية حال نحن لن نستعملهم فى الوقوف على

البكر ، بل نستعملهم — أو على الأصح سنستعمل أسماءهم — فى قضاء حاجاتنا وتسهيل أمورنا عند ذوى الشأن ؛ بل قد يصبحون هم أنفسهم ذوى الشأن ما بين يوم وليلة .

وتمطى عبس وتثاءب ، وقال لميمون :

— لم تقل مشروعك بعد .. أوجز فى الحديث فإنى أوشك على النعاس .

— والمشروع يتلخص فى أن نحاول تقليد مختلف الهيئات والبيئات والجماعات ، وأن نشهر بهم وبعيوبهم ، وألا يقتصر الأمر على وعليك ؛ بل ننشئ فرقة كبرى للقرود ؛ وننظمها وندربها ؛ أنا أعلم أن الأمر ليس من السهولة كما يبدو ؛ وأن المسألة تحتاج إلى كفاح وجهاد وعمل ؛ بحث ودراسة ، وتمحيص ، ولكننى أؤكد لك أننا لابد أن نصل وأننا سنستطيع أن نؤدى للبلد عملا جليلا ، فتكشف للبلد عيوبه ونفضح مساوئه ؛ سيخشانا الجميع ؛ ويتحاشون الخطأ خشية أن نفضحهم أمام الناس ؛ وسيحاولون جهدهم أن يكونوا أفضل مما هم حتى لا يعطونا فرصة التشهير بهم ، ما رأيك ؟

— كلام فارغ .

— لا .. لا .. ليس كلاما فارغا ؛ يجب علينا أن نبدأ المشروع فنرسل دعوة إلى جميع « القرداتية » والقرود ، لكى نعقد اجتماعا للبحث والتشاور ولوضع أسس العمل ، ولترشيح كبار الأسماء التى ننوى أن نشركها معنا .

ثم نرسل بعد ذلك مندوبين لدراسة المصالح المختلفة والهيئات المتعددة ، لكى تكون لديهم فكرة صحيحة عما يحدث هنالك ؛ ولكى يكون تدريبنا ومراننا على أساس صحيح .

— كفى سخفا وهراء .. ودعنى أنام .

— استمع حتى النهاية ؛ سنرسل مندوبا مثلا إلى المعاشات فى المالية ؛ ومعه طلب بأن زنوبة هانم زوجة المرحوم ميمون أفندى ساكن الجنان ، قد توفى زوجها أثناء تأدية واجبه وهى تطلب أن تتنازل لها الحكومة عن نصيبها فى المعاش ،

ومندوبا آخر إلى التنظيم فى الأشغال ومعه طلب بأن زنوبة هانم تطلب الحصول على تصريح بهدم منزلها الآيل للسقوط ، ومندوبا ثالثا إلى وزارة الأوقاف ومعه طلب بأن زنوبة هانم المستحقة فى وقف ميمون الجبل قد مضى عليها ثلاثون عاما وهى لا تستولى على استحقاقها فى الوقف ، وأنها قد أرسلت خمسمائة وخمسين شكوى لم يبت فيها إلى الآن ؛ وهكذا فى كل مصلحة ، وكل وزارة ، ويستمر المندوب وراء الطلب ، يرى فى النهاية ما سيحدث له ، وبذا تتاح له فرصة الدراسة ، وتتاح لنا بعد ذلك فرصة التشهير .

— أيها الغبى ، هل تظن هذه الأشياء تستحق الدراسة ؟ سأخبرك أنا عن مصير كل خطاب دون حاجة إلى مندوب : الطلب الأول ، سيضطجع فى الأرشيف لبضعة أشهر ، وفى مكتب كل موظف من موظفى المعاشات بضعة أشهر أخرى ، وتمر سنة أو سنتان والطلب مستغرق فى هجعته ، فتحاول الست زنوبة أن تتوصل إلى بعض ذوى الشأن وتشكو لهم أمرها ، فيكلم ذو الشأن هذا مراقب المعاشات أو أى امرئ آخر له شأن فى المعاشات ، فيأمر الأخير بأن يحضر إليه الطلب ، فيبحثون عنه بين أكداس الملفات ، ويمر أسبوع فى البحث عنه ، ثم يخبرونه أخيرا بأن الملف قد فقد ، فتكتب الست زنوبة طلبا آخر ويؤشر عليه بأن يعرض على وكيل الوزارة المختص ، ويعرض الطلب على وكيل الوزارة فيؤشر عليه « بأن ميزانية الدولة لا تسمح بتحمل هذه الأعباء » ، فيكلم ذوو الشأن وكيل الوزارة ويرجونه الموافقة على الطلب ، فيتضح لوكيل الوزارة أن موارد الدولة تسمح بتحمل هذه الأعباء ، ويؤشر بالموافقة ، ويكتب بعرضه على اللجنة المالية ، ويمر بعد ذلك عام والطلب يتهادى فى اللجنة المالية .

وتتوصل زنوبة هانم مرة أخرى إلى ذوى الشأن ، فيمر طلبها من اللجنة المالية ويحول إلى مجلس الوزراء ، ولا يهمون بعرضه على المجلس حتى تسقط الوزارة ، فيعاد الطلب مرة أخرى لكى يبدأ سيره من جديد من أول الأرشيف ، يمر بالدورة السابقة ، ولست أشك فى أنه قبل أن يصل إلى مجلس الوزراء فى هذه

المرة ، وتكون زنوبة هانم قد لحقت بالمرحوم الطيب الذكر ميمون أفندى ساكن الجنان الذي تستولى الحكومة على نصيبها من معاشه الذى لا يزيد على ثلاثة جنيهات .

هذا عن الطلب الأول ، أما عن الطلب الثانى فلا أظن إلا أنه ستتملكه الحيرة ما بين التنظيم والمحافظة . وأن التصريح بالهدم لن يعطى إلا بعد أن يكون البيت قد سقط فعلا ، أما الثالث فستكون نتيجته أن زنوبة هانم ستؤمر بدفع ما هى مدينة به إلى الوقف ، رغم أنه ليس هناك وقف باسم ميمون الجبل .

ما رأيك يا عم ميمون ، هل تراك فى حاجة بعد ذلك إلى إرسال مندوبين للدراسة والبحث ؟

فأطرق ميمون برهة ثم أجاب :

ـــ على أية حال أرى أن نبدأ بدعوة الزملاء من القرود والقرادتية ، وبأن نعقد الاجتماع للبحث والتشاور .

ولم يجب عبس ، واستغرق فى التفكير حتى راح فى سبات عميق . وبعد برهة استلقى ميمون وأغمض عينيه ، واستسلم للنوم .

ومضى أسبوع وأسبوعان على هذه المناقشة بين ميمون وصاحبه ، وفى ذات صباح استيقظ الناس ليجدوا فى الصحف نبأ خطيرا جاء فيه :

مؤامرة كبرى لقلب نظام الحكم

« اكتشف البوليس السياسى أمر مؤامرة خطيرة نسجت خيوطها فى عشش الترجمان ، وقد قبض على أصحاب المؤامرة ، وكان بينهم عدد لا يستهان به من القرود ، ويقال إنهم قد عثروا مع المتآمرين على كشف به بعض كبار الأسماء من الذين سيشتركون فى المؤامرة .

وقد جاءنا أمر حظر من النيابة ، بأن لا يذاع شىء عن المؤامرة خوفا على سرية التحقيق ، ونحن ـــ عملا بأمر النيابة ـــ نمسك عما لدينا من معلومات خطيرة ومن وثائق هامة بخصوص هذه المؤامرة » .

وسمع الناس بعد ذلك أخبارا شتى نشرتها الصحف الأجنبية مؤداها : أن القرود قد تولوا زمام الحكم فى مصر ؛ وأن المعارك بين القرود والناس على أشدها فى شوارع القاهرة ، وأن القرود فى حديقة الحيوانات قد حطموا الأقفاص وخرجوا لينقذوا إخوانهم الذين سالت دماؤهم أنهارا فى الطرقات والميادين .

وكتبت « الديلى إكسبريس » تقول : إن قرود أفريقيا أرسلوا برقية احتجاج إلى مجلس الأمن يطلبون منه التدخل ويهددون بالزحف على مصر .

وكتبت « الديلى هيرالد » تقترح : أن تقسم مصر بين المصريين والقرود

وكتبت إحدى الجرائد المصرية تقول : إن المؤامرة ليست ضد العرش ؛ وأن أصحاب الأسماء التى عثر عليها لم يقبض عليهم بعد ، واتهمت حزبا معينا بتدبير المؤامرة .

ومضى أسبوعان والنيابة جارية التحقيق ، والبوليس السياسى جاد فى النشاط واليقظة ومراقبة كل أصناف القردة والماعز .

وفى نهاية الأسبوع الثالث نشرت الصحف البلاغ التالى :

« أصدرت النيابة أمرا بالإفراج عن المتهمين فى قضية قلب نظام الحكم بعد أن اتضح لها سلامة نية المتهمين ، وأمرتهم بالكف عن التجمهر ، وعقد الاجتماعات ، وأمرت زعيمهم عبس بأن يحد من نشاطه » .

وفى ذات ليلة عاد ميمون وعبس إلى جحرهما بعد أن أفرج عنهما ؛ وعلى الباب استقبلتهما زنوبة وقد هطلت دموعها وقالت لعبس :

ـــ ألم أقل لك لا تسمع إلى هذا الأحمق المأفون ؛ إنى أعرفه خيرا منك .

وطأطأ ميمون برأسه خجلا وأجاب بصوت خفيض :

ـــ تبت إلى الله ؛ هذا البلد لا يستحق أكثر من « سلام أسيادك » و « نوم السكران » !

لـو تعلمون

﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

« قرآن كريم »

ألهانا التكاثر حتى زرنا المقابر .

لنبدأ قصتنا من ههنا .. زيارة من زيارات المقابر .. جنازة حارة .. نواح وصياح .. نعوش وقبور .. أجداث وأكفان .. حانوتية وتربية !!

لا تفزعوا ولا تروعوا ، ولا تولوا مني فرارا ، ولا تمتلئوا رعبا ... لا يصيبكم مني تشاؤم ، أو تطير ؛ أو تظنوني « ندابة » أستدر الدمع وأنتزع النواح ، أو أبكي محزونا أو « أريد جنازة أشبع فيها لطما » !

لا تظنوا بي الظنون .. فبعض الظن اثم !! إني مخلوق مرح ، لا تنال من إحساسي الجنازات أكثر مما تنال من الحانوتية .. وأقصد بالجنازات هذه « الزفف » والمظاهرات التي تشيع بها النعوش ،أو هذا التهريج الذي يأبى المهرج الأكبر ــ أعني الإنسان ــ إلا أن يحيط به موتاه .

خذوا المسألة بسهولة ــ كما أخذها ــ ولنتحدث عن الموت والقبور والنعوش ، كما نتحدث عن أي شيء فكه طريف ، ولا تخشوها أبدا ؛ وأزيلوا من أنفسكم كل ما علق بها من أوهام كاذبة تخيفكم منها ؛ واعتبروا المسألة كلها ليست أكثر من نهاية الشيء ؛ وهل هناك شيء بلا نهاية ؟! ماذا يخيفنا إذن من أن يكون لنا نهاية ؟! ومن أن نسلي أنفسنا بالحديث عن النهاية وما حول النهاية !

اتفقنا ؟ فلا خوف ولا جزع ولا فزع !

ابدأ الحديث إذن ! ولتسمعوا منى وصف الجنازة ، تماما كما تسمعون وصف « ماتش كرة » أو وصلة غنائية .

بأى جنازة أبدأ ؛ وبقصتى جنازتان ؟! وبأى بطل أبدأ ، وبقصتى بطلان ؟!

جنازتان مختلفتان كل الاختلاف ؛ متباينتان تمام التباين .. بين إحداهما والأخرى ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الذروة والحضيض ، ولم نذهب بعيدا ؟ وبين إحداهما والأخرى ما كان بين الميتين ، عندما كانا على قيد الحياة ، على قيد الحياة فقط !!

ولو وضعنا للجنازات درجات ، كما نضع للوظائف الحكومية واعتبرنا إحدى الجنازتين أولى ممتازة ، فلاشك أن الأخرى لن تكون أكثر من تاسعة « ج » .

لنبدأ بأولاها : الجنازة الممتازة ، الفخمة الضخمة ؛ فيروعنا أول ما يروعنا، إطارات سميكة سوداء كللت هام الصحف وصورة الفقيد ؛ فقيد الشهامة والشرف والعلم ؛ والأدب والمروءة و .. و .. إلخ . تتوسط صحائفها .. ثم تطالعنا تحتها قصائد الشعراء يرثون بها الفقيد .. لا يعلم إلا الله متى نظموها .. أبعد أن مات الفقيد .. أم عندهم مرثيات جاهزة .. من مقاسات مختلفة تناسب الفقداء الأعزاء ؟!

ثم نقرأ بعد ذلك مائة نعى من مائة هيئة مختلفة . موظفو البنك الاقتصادى .. والشركة العقارية .. وجمعية تحسين الخطوط .. وجماعة الأدباء المنكوبين .. ونقابة الحانوتية .. ومحررو جريدة المصباح المنير .. و .. و .. إلخ .

ثم لا يخلو الأمر بعد كل هذا من طفاطيق مختلفة .. تطالعنا عناوينها بالخط العريض « إلى الراحل العزيز » . و « دمعة » ، « ولوعة » و « فى جنة الخلد » . وفى أسفل الطقاطيق نقرأ الإمضاءات « الباكى الحزين » ، و « الآسف الملتاع » .

فإذا تجاوزنا كل هذه الإعلانات عن الميت (تحضرنى بهذه المناسبة فكرة أرى فيها ابتكارا فى عالم الوفيات ، وهى أن يعلنوا عن الوفيات بواسطة إعلان الجدران .. أو العربات الكارو والطبلة التى تستعمل فى الإعلان عن سينما إيديال ..) أقول إننا إذا تجاوزنا كل هذه الإعلانات ثم اتجهنا إلى بيت القصيد أو بيت الفقيد بجاردن سيتى وجدنا فى الدار هرجا ومرجا .. وأبصرنا القوم وقد انهمكوا انهماكا تاما فى تحضير الجنازة .

ويلوح لنا أول ما يلوح ، سرادق رفيع البنيان قد اكتظ به القوم وامتلأت مقاعده المذهبة وأخذ الفراشون يجوسون خلاله بملابسهم الأنيقة المزركشة يوزعون أكواب المياه المثلجة على المعزين ليطفئوا بها غلتهم ويرطبوا بها أجوافهم .

الوقت ما زال مبكرا ، وأمامنا ربع ساعة حتى تخرج الجثة .. هل تسمحون لى أن أجول بكم جولة بين المعزين وأن أنصت إليهم فأنقل إليكم أحاديثهم ؟ إن الأمر يتطلب منى جهدا ومشقة حتى أستطيع أن أكتم الضحك .. فإن مناظرهم مضحكة جدا وهم يحاولون أن يكسبوا وجوههم مظهر الحزن والأسى : هذان أثنان قد بدت عليهما علامات الحزن وأقبلا على بعضهما يتهامسان .. ولا يشك الناظر إليهما أنهما يذكران محاسن الفقيد ويترحمان عليه .

لننصت جيدا .

همس أولهما وهو رجل قصير بدين ، لا تكاد قدماه تبلغان الأرض .. ذو منظار ثخين .. تبدو من خلفه عيناه الضيقتان :

ـــ لقد قدمت مائة مذكرة ومائة شكوى وأخيرا طلبت أن أنقل إلى الضرائب فقد يفيدنى التنسيق هناك .

ـــ لا فائدة .. فالدرجات هناك محجوزة .

ـــ أنقل إلى أية داهية !!

ثم التفت إلى الفراش ، ومد يده من فوق الصينية وجرع الكوب الخامس ، وعاد يهمس وقد كسا وجهه المظهر إياه :

ـــ يا أخي .. أكلت فسيخ حمى على قلبى .. إنى أحس بجوفى نار الله الموقدة .

ـــ خذ كوربونات الصودا .

لنترك الاثنين منهمكين فى الدرجات والفسيخ وكربونات الصودا . وننتقل إلى آخر بجوارهما قد شد نفسه .. وبدا متأنقا متحذلقا .. مال طربوشه على أحد حاجبيه ، وبدا وجهه « مخدوما » وشاربه منمقا ، وأحنى الرجل نفسه من العنق ، وبدا على وجهه أبلغ آيات التأثر .. لا يكاد يرفع بصره عن حجره الذى وضع فيه يديه اللتين أمسكتا بمنظار أسود تعبثان به .

ولو حاولنا أن نتبع بصر الرجل بدقة .. لوجدناه قد ثبت على زجاج المنظار الذى انعسكت فيه صورته جلية واضحة .. كأن الرجل يحدث نفسه وهو يمعن البصر فى صورته :

ـــ هذا الحلاق الغبى لن أذهب له بعد ذلك .. لقد قص كثيرا من الطرف الأيسر للشارب مع أننى حذرته من ذلك .

ثم أدار يده ببطء وألقى نظرة على الساعة .. وكأنى به يحدث نفسه :

ـــ متى سيخرج الفقيد ؟ .. عليه وعليهم لعنة الله .. الظاهر أنى سأتأخر عن الموعد .. وسأذهب فأجدها قد خرجت أو أجد زوجها هناك .

هذه هى الفاجعة التى سيسببها لى الفقيد .

فإذا ما تركنا صاحبنا الحزين على شاربه ، الملتاع على موعده ، واتجهنا إلى ركن قد جلس فيه بعض كبار القوم .. مال كل منهم على جاره يتهامس وإياه ، وسمعنا أحدهم يسأل الآخر .

ـــ ماذا فعلت فى استجوابك ؟

ـــ سأؤجله .

ـــ ولم ؟ إنه سيهز الوزارة !

ـــ سيقضون لى الحاجة التى أريدها ، فلست أرى داعيا له .

ثم ننتقل إلى الآخر فإذا به يهمس فى أذن جاره :

— ما الأخبار ؟

— لا جديد .

— واجتماع أمس .. ماذا تم فيه ؟

— لا شيء .. قرارات وبيانات وكان الله يحب المحسنين .

ونجد بين القوم واحدا منفردا ، وقد جلس ووضع ساقا على ساق .. وكسا نفسه مظاهر العظمة الحزينة كأنما يعطى مثلا لمن حوله كيف يكون حزن العظماء . وفجأة يكتشف الرجل أن هناك « نقرة » فى جوربه فيسرع فى إنزال ساقه ويخفى ساقيه أسفل المقعد ويحدث نفسه فى ثورة مكتومة :

— بنت الكلب .. لقد قلت لها أن تصلح الجورب . والله لأقتلنها ضربا عندما أعود إلى البيت .

ولا أظننا سنجد بعد ذلك ، بين هذا الحشد من المعزين من هو خير ممن وصفنا .. فكلهم ذلك الرجل .. مظهر حزين .. ونفس أبعد ما تكون عن الحزن . اللهم إلا قلة ممن أصابهم فقد الميت بخسارة مباشرة .

ونترك الصيوان فنجد مئات الطاقات قد صفت على طول الطريق ، وقد أمسك بها مندوبو الهيئات التى قدمتها ونقشت على قطعة الحرير التى ربطت بالطاقة اسم الهيئة « المساعى المشكورة » ، و « نقابة بائعى البسبوسة وجوز الهند » ، و « مدرسة السقا مات » .. إلخ .

وندخل إلى حديقة الدار الفسيحة .. فنجد القوم يهبطون بالنعش من فوق الدرج ، ونسمع نهنهة وبكاء ، ونلمح أشباح نساء متشحة بالسواد .. لم تخل وجوه بعضهن من الأصباغ ولا كفت ألسنة بعضهن عن نهش بعضهن ، أو كفت عيون بعضهن عن التحديق فى حلى بعضهن ومودات بعضهن .

وبين كل هذا الخليط من الآدميين : نساء ورجال ، أحياء وأموات يلوح لأعيننا البائسون الوحيدون فى هذا الجمع الصاخب .. أتدرون من هم ؟!

بضعة خراف .. قد وقفت فى ساحة الدار .. مطاطئة الرؤوس .. تنتظر

مصيرها المحتوم .. وبجوارها جزار « يسن سكينه » لينحرها أمام النعش .

وكأنى بأحدها ينظر إلى النعش ، ثم إلى أصحابه ، ويهز رأسه .. ويقول فى حسرة : « وما ذنبنا نحن ! » .

وتمت عملية النحر ، وخرج النعش إلى الطريق ، وقرقعت فى الهواء عدة أصوات ، وهب جمهور المشيعين من مقاعدهم خارجين من الصيوان .. وكانت الهيئات قد اصطفت على طول الطريق أمام النعش .. تتقدمها الموسيقى .. وتتخللها طاقات الزهر مرفوعة فوق الأكتاف .

وصدحت الموسيقى .. وبدأ الموكب يتحرك .. وسار عساكر المرور بجيادهم فى طليعة الموكب يفسحون الطريق ؛ وامتلأت الشرفات والنوافذ بالمشاهدين ، وقد بدت على وجوههم علامات الإعجاب والسرور ؛ ولم يسلم الأمر من أن يقول بعضهم لبعض : « أما جنازة هائلة » !!

ووصلت الجنازة إلى المسجد ، فإذا بالسجاجيد قد فرشت أمامه وعلى درجاته ؛ وغاب النعش فى داخل المسجد برهة حتى انتهوا من الصلاة على الفقيد ، ثم خرج يتهادى ، وحمل فى عربة سوداء أنيقة .

ووقف الأهل والأقرباء يصافحون المعزين ، ولعد لحظات كانت عربة النعش تنهب الأرض نهبا ، وقد تبعها مئات من العربات الفخمة .

ووصلت العربة إلى المقبرة الوجيهة ذات الحديقة الغناء والبناء الفخم ، واصطف عدد من المقرئين ، بجببهم الملونة وعمائمهم الحمراء البيضاء ، وأخذوا يستمطرون على الفقيد رحمة الله وغفرانه ، وعلى أنفسهم رحمة أهل الفقيد وإحسانهم .

لنترك الفقيد العتيد ؛ فقيد سلسلة الفضائل التى عددناها فيما سبق ، ولنستحث الخطى حتى نلحق بجنازة الفقيد المسكين الميت بعشش الماوردى ، التى لا تبعد كثيرا عن قصور جاردن سيتى .

ميتنا هذا لم يحس به أحد ؛ فلا سودت من أجله صحف ولا رثاه الشعراء ؛

ولا نعاه الناعون ؛ لقد استيقظ زميله الذى يشاركه الغرفة ، أو قل « العشة » فوجده ميتا ؛ فأصابه الذعر وانطلق إلى الجيران ينبئهم الخبر .

وتأثر الجيران وبدأوا يجمعون فيما بينهم أجرة « الخرجة » . وأخيرا أمكنهم أن يبتاعوا للرجل الكفن وتبرع الحانوتى بنقله مجانا .

وبعد ساعات خرج النعش الخشبى العارى من الدار المتواضعة ؛ وسار فى الطريق يتبعه بضعة أنفار بالجلاليب والطواقى والأقدام العارية ، يتبادلون فيما بينهم حمل النعش ويطلبون الرحمة من الله للميت ولأنفسهم .

وسارت الجنازة تعدو فى الطريق لا يكاد يحس بها أحد ، لا طاقات أزهار ولا موسيقى ؛ ولا جند يفسحون الطريق ، بل تنتظر هى فى الطريق حتى تمر من أمامها العربات التى تتضجر منها لأنها تسبب فى الطريق زحاما .

وأخيرا يصل النعش إلى المقبرة المتواضعة ؛ حيث نبصر رجلا قد أخذ يرش الأرض بقربة ماء حملها على ظهره ؛ ثم نبصر فقيهين من نوع الميت والمشيعين وقد تربعا أمام القبر وأخذا يتلوان القرآن بسرعة كأنهما فى عجلة من أمرهما وطريقتهما فى القراءة عجيبة ؛ فهما يأخذان فى القراءة ، ثم يصمت أحدهما ويستمر الآخر ؛ وبعد برهة يلحقه فيقرآن ، ثم يصمت الثانى ، ويستمر الأول فى القراءة وهكذا بالتبادل .

وفجأة نجد أحد المشيعين قد نظر إلى الفقيهين بغيظ وصرخ فيهما :

— يا رجل منك له .. عيب ، اتق الله ، أمغالطة حتى فى كلام الله ؟!

وسأله رفاقه عما حدث ، فأخبرهم أن الفقيهين يقفزان آيات بأكملها ، ورأى الفقيهان من المشيعين « العين الحمراء » فأخذا فى القراءة بترو وتمهل .

وأخيرا أغلق القبر على الجسد وتفرق المشيعون كل إلى سبيله .

انتهت الجنازتان : الجنازة الممتازة ، والجنازة البائسة ؛ لنترك المشيعين ، فى تهريجهم ومسخرتهم .. لنتركهم جميعا ، فقد كفانا سيرا معهم فى الجنازة ، ولنسر الآن ، مع ...

مع من ؟!!

مع الميتين !!

أراكم جزعتم ؟!!. أما قلت لكم خذوا المسألة بسهولة . فلا تجزعوا ولا تفزعوا ، ماذا يفزعكم من قولى نذهب مع الميتين ؟.. من منكم يعتقد أنه من المخلدين .. من منكم يظن أنه لن يموت ؟.. بل من منكم لا يرى الموت أقرب إليه من حبل الوريد !. أنا نفسى أراه كامنا بجوارى فى كل لحظة .. فى عربة تعدو فى الطريق .. أو فى زر الكهرباء .. أو من عود ثقاب .. أو من رصاصة صغيرة .. أو من قطعة جاتوه .. أو فى كل شيء .. أو فى لا شيء .. فى سكتة من سكتات القلب .

وعلى كل حال .. لست أرى داعيا للفزع ... فإنى لم أقصد بقولى نذهب مع الميتين أن نموت معهم .. ولا حتى أن نذهب إلى قبورهم .. فإنى أعرفكم جزعين فزعين ، وأعرف أننى مهما حاولت طمأنتكم من ناحية الموت فلن تطمئنوا .. أنا أعرف ذلك ولن أكلفكم إلا ما فى وسعكم .

لن نذهب مع الميتين فى قبريهما لسبب واحد ، هو أنهما ليسا فى قبريهما ، وكل ما سنفعل هو أن نرتفع بأنفسنا قليلا .. لنترك الأرض برهة .. ولنصعد بأذهاننا رويدا رويدا .. فنحلق فوق القبرين حيث نجد الروحين قد التقتا .. وننصت إلى حديثهما فنجد أن بينهما الحوار التالى ، ونجد أحدهما يقول للآخر :

ـــ أهلا .. محمد .

ـــ تقصد محمد باشا ؟

ـــ لا .. أقصد محمد فقط ... باشا هذه قد تركتها هنا ..

وأشار إلى أسفل ، ثم أردف قائلا :

ـــ تركتها مع الجسد الذى سيصبح جيفة نتنة بعد بضعة أيام .

ـــ أجل ! أجل نسيت .. اعذرنى يا معلم عبد الحميد .

ـــ لا داعى لمعلم ، فقد تركتها أنا أيضا .

وساد الصمت برهة ، ثم تنهد عبد الحميد وقال لمحمد باشا سابقا :

ــ أمر عجيب !!

وسأل الباشا السابق ، وقد بدا عليه تفكير عميق وشرد ذهنه :

ــ ما هو هذا الأمر العجيب ؟

ــ ما كنا فيه .. وما صرنا إليه ؟

ــ عجيب جدا !!

ــ من كان يظن أننا سنلتقى هكذا لقاء الند للند .. أنا عبد الحميد العامل المسكين الذى استغنيت عني ضمن من استغنيت من العمال .. فلما بكيت لك واستعطفتك وقلت لك إننا لن نجد ما نقتات به .. قلت فى بساطة إن مصلحة الشركة تقتضى ذلك ، وأن السياسة العامة قد اتجهت إلى التوفير فى عمال المصانع .. من كان يصدق أنى سأقف هكذا بجوارك أنت محمد باشا صاحب الملايين .. الأمر الناهى المجاب المطاع .. وكأننا أصدقاء أو زملاء ؟!

ــ أهذا كل ما تراه من عجيب ؟

ــ بالنسبة لى .. أعتقد أنه أعجب أمر أبصرته حتى الآن ، أن أستوى أنا وأنت .. وأن نخرج من الدنيا لا فارق بين أحدنا والآخر ، بعد تلك الأموال التى جمعتها ، والشأو الذى بلغته ، وبعد كل ما شيعت به من إجلال وإكبار !!

أليس عجيبا أن يرسى كل هذا على فشوش ، وأن يتساوى من جمع له ثمن الكفن وحملوه عدوا فى خشبة عارية مع من أحاطوه بالورود والرياحين ونحروا أمامه الذبائح .. ودقوا له الطبول والموسيقى ؟!

وضحك محمد باشا فسأله عبد الحميد :

ــ ماذا يضحكك ؟

ــ هذه الزفة التى شيعونى بها .. آه لو كانوا يعلمون .. لقد كنت مثلهم لا أعلم .. ولكن أصبحت الآن أعلم .. هذه الجنازة التى لم أكن أتوقع سواها لرجل هام مثلى ... لشد ما أضحكتنى وأنا أبصرها بعد أن فاضت روحى .

كم أضحكني هذا العبث وذاك التهريج .. هذه الورود وهذه الرياحين .. وهذه المظاهرات ، وهذه الموسيقات .. كأني عريس أزف .. أو كأني فتحت عكا .. وهذه القصائد التي نظمها الشعراء والمرثيات الطويلة ، التي رثوني بها .. ما فائدتي منها ، وما فائدتهم ، وما فائدة الناس ؟!

وما كل ذاك الذي فعلوه في جسدي ، جسد الباشا .. جسدي الميت الذي أضحى .. لا شيء ، جسدي الذي يتساوى الآن مع جسد قطة أو كلب ملقى على قارعة الطريق ... فبعد أيام سيصبح هذا جيفة .. سيأكل الدود هذا وذاك .. وسيختلط كلاهما بأديم الأرض كما قال أبو العلاء .

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد

أجساد الآدميين وأجساد الكلاب وأجساد القطط .

علام هذا الحرير الذي دثروا به الجيفة ...

آه لو يعلمون ... لصنعوا من الكفن دثارا لليتامى وأبناء السبيل ووقوهم شر العرى ... ووضعوا الجيفة في قبرها عارية فلن يضيرها العرى ... ولن يقيها الكفن شر الدود ؟!!

ولكن كيف يعلمون .. وأنا نفسي كنت لا أعلم ؟

آه لو كنت أعلم .. أكنت فعلت ما فعلت ؟

لقد كنت أشبه بجواد يعدو في سباق .. سباق لجمع المال ، لا أكاد أحس شيئا مما حولي .. أعدو .. وأعدو .. أجمع المال فوق المال ، كلما ازداد بي الثراء ازدادت رغبتي في الثراء ، وكلما كثر ما عندي من المال .. ازدادت لهفتي على جمع المال ...

لقد كنت ولاشك مجنونا ، رغم ما كانوا يصفونني به من فرط الذكاء ، وكنت أبله ، رغم ما ظنوه من حرصي ومهارتي . لقد أنشأت الشركات ، وشيدت المصانع ، وقالوا إنني خدمت البلد ، وقد يكون في قولهم شيء من الصحة ، ولكن غرضي الأول كان خدمة نفسي ، نفسي أولا ، كنت أرضي

فيها تلك الغريزة التى تحكمت منها وسيطرت عليها غريزة جمع المال . لقد كان هذا هو الغرض الأساسى وكان غيره أموزا ثانوية ، كنت أتبرع للخير ، ولكن بعد أن أكون قد وازنت بين ما سأغرمه بالتبرع وما سأغنمه منه فإذا وجدت الغنم أكثر من الغرم تبرعت ، وإذا وجدت العكس أحجمت .

ما كل هذا المال الذى جمعت ؟ وماذا كنت أظننى سأفعل به ؟ أهناك أكثر منى جنونا وأشد حمقا ؟

إنى لأذكر كيف حاربت فى مجلس النواب قانونا لزيادة الضرائب ، وكيف حشدت لمحاربته كل قواى ، وكل نفوذى ، وكان القانون لا يؤدى إلا إلى زيادة خمسة فى المائة من الضريبة الأصلية .

تصور خمسة فى المائة من الزيادة الأصلية كانت تفزعنى وتقض مضجعى .. لقد كنت أكره أن ينتقص من مالى .. آه لو كنت أعلم .. لفعلت شيئا كثيرا !!

لو كنت أعلم لما أحجمت عن بناء ذلك المستشفى الذى كنت أستطيع أن أهيىء بواسطته العلاج لعمال مصانعى .. لو كنت أعلم لما طردت هؤلاء الذين استغنيت عنهم وتركتهم يتضورون جوعا . لو كنت أعلم لما أحببت المال حبا جما .

لقد كنت أعمل الخير للتظاهر ، لقد بنيت جامعا ليقولوا عنى رجل تقى ، وأنشأت قرية نموذجية وأنشأت بها مدرسة وزودتها بالماء النقى وجعلت حياة الفلاحين فيها حياة نموذجية ، وكان فى قدرتى أن أفعل هذا بكل قراى ، ولكنى كنت حريصا على المال فلم أفعل صالحا إلا للتظاهر والشهرة . كنت أعرف كيف أدفع القرش فلا يذهب هباء بل ينتج لى أربعة أو عشرة قروش أو ما يوازيها شهرة ومجدا وجاها وسلطانا .

لم أكن أفكر فى النهاية قط .. لقد كنت أعمل لدنياى كأنى أعيش أبدا ولم يكن يخطر على بالى أنه يمكن أن أخرج من الحياة مجردا ، صفر اليدين ، تماما كما خرجت أنت .. الذى لم تكن تملك ثمن كفنك .

وأطرق محمد باشا برأسه وبدا عليه الحزن والأسى .. وحاول صاحبه أن يرفه عنه قائلا :

ـــ خل عنك .. لقد تمتعت على الأقل فى دنياك. لقد تمتعت بمعيشة القصور .. وركوب العربات الفخمة .. ونعمت بطيب الطعام .

ـــ هذه هى المصيبة ، المصيبة أننى لم أتمتع ، فلو أنى حصلت من السعادة ما يناسب مع ما حصلت عليه من مال لهان الأمر ، ولكن كل هذه الأشياء التى ذكرتها والتى تظنها أشياء ممتعة لم أكن أحس منها أية متعة ، ما أحسست قط أنى أعيش فى قصر ، وما خطر ببالى أن ركوب العربات الفخمة شىء ممتع ، أما طيب الطعام فقد حرم على لأن معدتى لم تكن تحتمله .

ولكن أكثر ما يسبب لى العزاء هو أنى تركت لولدى ثروة ستكفيه مدى الحياة ، فلن يكون بحاجة إلى أن يشقى أو يكد ، لن يكون فى حاجة إلى جمع المال ، بل يستطيع هو أن يفعل ما كنت أحجم أنا عنه ، دون أن يخشى أن ينفد المال .

لقد حاربت قانون التركات فى مجلس النواب بكل ما استطعت من جهد .. ولقد نجحت فى عرقلته .. ويخيل لى أن هذا هو أصوب ما فعلت فى حياتى .

وبعد يومين من هذا اللقاء تلتقى الروحان مرة أخرى فى جوف الليل .. ويبدو على محمد باشا الهم والأسى .. ويسأله عبد الحميد عما به ؟ فيجيبه فى صوت يائس :

ـــ أملى الوحيد .. قد خاب .

ـــ كيف ؟

ـــ انظر .

وينظر عبد الحميد فيجد روحا ثالثة صاعدة من أسفل ، فيسأل :

ـــ من هذا ؟

ـــ ابنى محمود .. الذى تركت له كل ثروتى لقد انتحر الآن فى أحد نوادى

القمار بعد أن بدد الثروة .

وتنهد محمد باشا تنهيدة حارة .. ثم أردف هامسا :

— لى أمنية واحدة . آه لو استطعت أن أعود إلى الأرض مرة واحدة !.

— ماذا تفعل ؟

— أنفذ قانون التركات ، وأضع فقيها فى كل من مجلسى البرلمان .. وفى بيت أمثالى من أصحاب الأموال .. ليردد لهم ليل نهار :

﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

المحاكمة الكبرى

يا حضرات القضاة ، هذا المخلوق الذى يدعى « الإنسان » قد طغى وبغى ، وتجبر وتكبر ، وخضعنا نحن له وخنعنا دون أى سبب ولا داع .. فلا هو بخيرنا عقلا .. بدليل أنه حتى الآن لم يعرف كيف ينظم عالمه أو يؤمن حياته ، وبدليل هذه الحروب التى يفسد بها دنياه ويقلق بها راحته ، فهو مخلوق تعس شقى . شقاؤه ناتج عن غبائه وليس هو بأشدنا قوة ، ولا أجملنا منظرا ، ولا أطيبنا قلبا ، كل ما يفترق عنا به الخديعة والخسة واللؤم والرياء والنفاق .

وأخيرا دقت الساعة ، وحان الميعاد .

لقد دبرت المؤامرة خير تدبير ، وتم إعدادها فى طى الخفاء ، وفى غفلة من الحكام ورجال الأمن ، وحل موعد الاجتماع ، وتوافد الأعضاء ، والبوليس يغط فى نومه .

هذه والله سخرية !

كيف يغفل المسئولون عن أخطر مؤامرة حدثت فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم ؟ مؤامرة لا لقلب نظام الحكم ، بل لقلب نظام الخليقة ؛ مؤامرة لم يسمع عن مثلها عقل بشرى .

أين ؟!!

هنا فى مصر ، بل فى قلب القاهرة ، ستهب العاصفة فتكتسحنا جميعا ،

عاصفة عاتية لا تبقى ولا تذر .

هنا فى مصر ، وفى قلب العاصمة ، وإذا أردتم التحديد ففى الجيزة بالذات ، منبع الخطر والشر .

مهلا ، مهلا ، ولا تندفعوا كعادتكم فتلقوا القبض ، دون تفكير على عزيز المصرى ؛ فالرجل لا دخل له قط بالموضوع ؛ ولا تندفعوا فى حمق فتزعجوا عباد الله فى دورهم وترهبوهم بالتفتيش والمرمطة .

لا تتعبوا أنفسكم ، ولا توقظوا أحمد عبد الرحمن ، ولا تنهكوا الرجل بالخروج فى قر الليل .

اهدأوا وانتظروا ؛ فسأكشف لكم عن المؤامرة ؛ وسأنقل لكم أخبارها أولا بأول ؛ وإذا احتاج الأمر إلى معونتكم فسأطلب العون . كل ما أطلبه منكم هو الهدوء والانتظار .

* * *

لست أدرى كم الساعة الآن ؛ فقد فتحت عينى ، فإذا بالظلمة تكتنفنى من كل جانب ، ونسيم الليل يهب باردا فيلفح وجهى ؛ وإذا بأشباح الأشجار العالية تقوم أمامى كأنها المردة والشياطين ؛ والسكون من حولى قد ساد ، إلا من حفيف أوراق الشجر .

ومضت بضع ثوان قبل أن أدرك حقيقة الأمر ؛ وأخذ ذهنى ينشط من غفلته ؛ وانقشعت عنه سحب النوم ؛ وتذكرت أنى فى حديقة الحيوان ؛ وأنى قد رحت فى غفلة وأنا جالس على مقعدى أقرأ كتابا .

ولست أشك فى أن الغفلة قد طالت بى ؛ فإنى أذكر أن قرص الشمس — قبل أن أغفل — لم يكن قد هوى فى الأفق بعد ؛ وكانت الأشعة الحمراء ما زالت تعلو هام الشجر ؛ ولكننى الآن لا أكاد أبصر طرف أصبعى .

ونهضت من مكانى فى شىء من الفزع ؛ واتجهت مسرعا فى طريق يواجهنى ، وأنا أحس بشىء من القلق ؛ فقد خشيت ألا أهتدى إلى الباب . ولم يكن هذا

بالشيء المستبعد . فأنا أضل فى الحديقة فى ضوء النهار ، فما بالك فى حلكة الليل ؟

وخشيت أيضا أن يعثر على أحد الحراس فأتهم بالسرقة . حقيقة أنه ليس بالحديقة ما يمكن لمثلى سرقته ، ولكن من يثبت لهم ذلك .. هب حارسا أمسك بتلابيبى وادعى على بأنه قد رآنى وأنا أحاول سرقة الأسد أو السيد قشطة ، ثم سلمنى لأقرب مركز للشرطة ؛ أترانى أستطيع أن أثبت براءتى أمام الباشجويش قبل طلوع النهار . وبعد أن أكون قضيت ليلتى على الأسفلت ؟

ثم إن هذا قد يكون أخف الأضرار التى يمكن أن تصيبنى ، فإنى ، على أى حال، سأخرج منه سليما معافى ، ولن يزيد ما يصيبنى منه عن بضع إهانات وشتائم ، وفى أسوأ الأحوال بضعة أقلام ؛ ولكن المصيبة الكبرى ذلك الخاطر الذى ساورنى فملأنى رعبا .

ترى ماذا يحدث لو كانوا يسمحون لبعض الحيوانات بالانطلاق ليلا فى الحديقة للترويح عن نفسها والتمشى وشم النسيم .

ماذا يحدث لو كان السيد المحترم « السبع » يجول الآن جولة فى الحديقة .

وتملكنى من الخاطر رجفة ، وسرت فى بدنى رعدة ، وتصورت نفسى بين أنيابه ينهش لحمى ، ويقرقش ضلوعى ، ويمصمص عظامى ، ويبتلعنى فى معدته ليحللنى إلى مواد أولية .

ولكنى تمالكت نفسى ، ونهرت ذهنى وزجرته عن الانطلاق فى مثل هذه الأفكار الصبيانية السخيفة ، والتى لا تزيد على أفكار طفل يخشى الظلمة فيتخيل بها عفاريت وأشباحا .

أى أحمق أنا حتى أتصور أنهم يطلقون السباع من أقفاصها ليلا ؟. وكيف أجزت لنفسى مثل هذا التصور ؟. وكيف لم أقدر أن السباع لو أطلقوها فقد تنفذ إلى الخارج ، وقد تهجم على سواها من الحيوانات فتأكلها ؟.. وهكذا استطعت أن أهدئ نفسى ، وأبعد عنها الهواجس والأوهام ، فشعرت ببعض الراحة والاطمئنان .

ولكن هذا الشعور بالاطمئنان لم يستقر فى نفسى طويلا ، بل تطاير فجأة عندما سمعت صوت جسم ثقيل يسقط على مقربة منى .

وتلفت إلى مصدر الصوت فتملكنى ذعر مميت .

فى هذه المرة لم تكن المسألة تصورات أو أوهاما .

لقد كانت حقيقة .. حقيقة مجردة عارية . لا لبس فيها ولا غموض .

لقد رأيت الأسد بجوارى قد قفز من قفصه الذى فتح بابه على مصراعيه .

ورفع إلى الأسد رأسه ، ونظر إلى من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، نظرة ملؤها الازدراء ، ثم أشاح عنى بوجهه ومضى فى سبيله بخطوات متئدة متزنة .

وسمرت فى مكانى ، وأحسست أن الرعب قد أفقدنى كل قدرة على التفكير أو التصرف ، ورأيتنى أتقهقر بظهرى فى اتجاه مضاد للاتجاه الذى سار فيه الأسد حتى ابتعدت عنه بعض الشىء ، ثم استدرت فجأة وهممت بأن أطلق للريح ساقى .

ولكنى وقفت فقد وجدت أمامى قردين يسدان الطريق فى وجهى ، ولم يكن خوفى من القردين يقل كثيرا عن خوفى من الأسد ، وتملكنى سخط شديد على هذا الإهمال من المشرفين على الحديقة ، بل هذا الجنون والإجرام الذى يجعلهم يطلقون الحيوانات بهذه الكيفية .

ووقفت فى مكانى راجيا أن يتصرف القردان كما تصرف الأسد ، وأن يصبا على من نظرات الازدراء ما يشاءان ، على أن يجعلانى أمر بسلام .

ولكن الخبيثين لم يفعلا ، بل وقفا أمامى ينظران إلى فى سكون دون أن يتنحيا عن الطريق ، وقلت لنفسى « جر ناعم » فأشرت إليهما بالتحية ، وانحنيت أمامهما مبالغة فى الاحترام ، وقلت متأدبا :

— عن أذنكما .

ورفع إلى أحدهما رأسه ، وقال مكشرا عن أنيابه :

— إلى أين ؟

— إنى منصرف ، فقد تأخرت عن البيت .

— أى بيت ؟

— بيتى !..

ونظر القردان أحدهما إلى الآخر كأنهما يتشاوران فى أمرى ؛ ثم التفت أحدهما إلى وقال بلهجة لا تخلو من التهديد :

— سر أمامنا ، ولا تضطرنا إلى استعمال العنف .

وأدهشنى قول القرد ، ولم أستطع أن أعرف ماذا يريد الخبيثان منى ، وتساءلت فى أدب وتواضع :

— لعل هناك ما أستطيع أن أؤديه لكما ؟

— كفى ثرثرة .. ماذا يستطيع أن يؤديه عاجز مثلك أيها الأحمق ؟ سر أمامنا .

وفعلت الإهانة فعلها ، وبدأ الغضب يتسرب إلى نفسى ليحل محل الخوف — وخاصة أن الأسد كان قد ابتعد — فقلت فى لهجة حانقة :

— إنى متعجل ، ليس لدى وقت أضيعه فى المناقشة . قولا ماذا تريدان ؟

— إنك متهم .

— أنا متهم ؟

ومر برأسى ذلك الخاطر الذى قد ساورنى من قبل ، وهو أنى قد أتهم بسرقة الأسد ، والسيد قشطة ، واندفعت أنفى عن نفسى التهمة صائحا :

— أنا لم أسرقه .. إنه هو الذى خرج من تلقاء نفسه ، لقد وجدت الباب مفتوحا على مصراعيه ، ورأيته يقفز منه ، ولقد خشيت أن أتهم بسرقته فتركت له الطريق بأكمله ، ومع ذلك فأنتما تتهمانى بسرقته ، وهذه والله مصيبة ، وماذا يمكننى أن أفعل به ، ولو اتهمت بسرقة واحد منكما لكان هذا أقرب إلى العقل ، فقد يمكننى أن أسرح بأحد كما بين الجماهير ، ولكن ماذا أستطيع أن أفيد منه ..

أقسم لكما أنى لم أسرقه .

وبدت الدهشة على القردين وهزا رأسيهما متسائلين :

ــ ما هذا الذى لم تسرقه ؟

ــ الأسد .

وانطلق القردان يضحجان بالضحك ، وأنا بينهما حائر مبهوت .. وأخيرا تمالك أحدهما نفسه وقال فى سخرية :

ــ أنت تسرق الأسد !!.. أنت ؟!!

وقلت لها محنقا:

ــ وماذا تعنيان إذا بقولكما إنى متهم ؟ متهم بماذا ؟

فأجاب أحدهما :

ــ أنت متهم كإنسان .

ــ كإنسان ؟. ماذا فعلت كإنسان ؟

ــ لست أنت بالذات الذى فعلت ، ولكنه الإنسان بوجه عام . إنك ستمثل الاتهام فى المحاكمة الكبرى ، محاكمة الإنسان .. سيحاكم الإنسان فى شخصك .

ــ ولكن بأية تهمة ؟!.

ــ تهم كثيرة لا يحصرها العد ، ليس هذا وقت شرحها فستسمعها بأذنيك من المجنى عليهم .

ورأيت أن المسألة قد تطورت فأضحت على شيء من الطرافة . وتساءلت ساخرا :

ــ وهل هناك مجنى عليهم أيضا ؟

ــ بالطبع .

ــ ونيابة ، وقضاء ؟

ــ بالطبع ، بالطبع ، سترى كل هذا بعينيك . ستكون محاكمة عادلة . والآن سر بنا فقد أزف الوقت .

وسرت أمامهما فى الطريق الذى سار فيه الأسد ، وعاودنى التفكير فى الأسد ، وعاودتني الخشية ، فتلفت إلى أحد القردين وقلت محذرا :

— إن الأسد قد سار من هنا ، وأخشى أن يصادفنا فى عودته .

— إننا ذاهبون إليه .

— وما الداعى للذهاب إليه ؟ ألسنا ذاهبين إلى المحكمة ؟

— إنه رئيس المحكمة .

وتوقفت مذعورا ، وسألنى أحد القردين ؟

— ماذا بك ؟

— هب رئيس المحكمة جاع فى خلال الجلسة ، ونفذ الحكم فى المتهم قبل النطق به ، ماذا تكون النتيجة ؟ لا .. لا ..لن أذهب إلى محكمة رئيسها لا يعرف إيقاف التنفيذ ، أو قبول الاستئناف .

— وما الدخل بين جوع الرئيس وتنفيذ الحكم فيك ؟

— لا تظنانى أحمق .. إذا جاع الرئيس فماذا يمكن أن يأكل سوى المتهم .

— أيها الغبى ! هل تظن أن الرئيس « يرمرم » .. ألا تعلم أنه حرم على نفسه « الميتة ولحم الإنسان » .

وملأنى من قولهما الاطمئنان ، وعاودت السير ، حتى وصلنا أخيرا أمام ساحة المحكمة في « جبلاية القرود » .

ما شاء الله ! ماذا تبقى إذا فى الأقفاص ؟. لقد أبصرت كل حيوانات الحديقة وقد احتشدت فى تلك البقعة .

وقادنى القردان فأدخلانى قفص الاتهام ، (وهو أحد أقفاص القرود الذى أخلى من ساكنيه) .

وجلست فى القفص ، وقد تملكنى اضطراب شديد . فأنا شخص لم أتعود دخول المحاكم ، ولا حتى كشاهد ، فما بالك وأنا أدخلها كمتهم ، قد وضع فى عنقه كل ذنوب الإنسان وخطاياه ، منهم لا بما فعل هو فقط ، بل بكل ما فعل

إنسان على ظهر الأرض .

ومتهم أمام أى محكمة ؟!

محكمة رئيسها سبع ؟! سبع حقيقى ، لا سبع أفندى .

ومضت بى فترة وأنا فى شرود تام ، لا أكاد أميز شيئا مما حولى ثم بدأت أتمالك قوتى وهدأ روعى رويدا رويدا ، وأخذت ألقى نظرة إلى المنظر حولى .

ولا أكتمكم أنى أحسست بشىء من الغبطة ، وعاودتنى طبيعة التهريج ، وسرنى أن أكون أول إنسان يوضع فى قفص قرود . ولمحت بجوارى حبات من الفول السودانى متناثرة فى أرض القفص وشعرت بقارصة الجوع ، وخطر لى أن أشبع منها نهمى ولكننى خجلت ، وتصارع فى نفسى عامل الجوع مع عامل الخجل فتغلب الجوع ، ولم يمض لحظة على وضعى فى القفص حتى أدرت للمحكمة ظهرى ، وبدأت فى جمع الفول السودانى .. وجلست أتناوله .

وهدأت قارصة الجوع .. وبدأت أتطلع إلى ساحة المحكمة وأتأمل جماهير الحيوانات المحتشدة فيها .

كان الأسد يتصدر المحكمة وقد ربض فى مكانه فى هدوء ، وعلى يمينه نمر مخطط ، وعلى يساره فهد أرقط ، وعلى مقربة منهم وقف الفيل .. لست أدرى ماذا كان عمله بالضبط وإن كنت أرجح أن يكون كاتب المحكمة أو حاجبها .. ورأيت الثعلب ينظر إلى نظرات فاحصة ، ثم وجدته قد ترك مكانه وتسلل تجاهى حتى وصل إلى .. ثم قفز فجلس على حافة القفص الخارجية وهمس إلى قائلا :

ـــ ليلتك سوده .. إن مصيرك فى يدى فإننى ممثل النيابة .. إننى المدعى العام فى محكمة الحيوان . ما رأيك فى أن نعقد اتفاقا ؟ إننى أستطيع تبرئتك وإدانة المجنى عليهم ، وأستطيع أن أقلب اتهامى لك دفاعا عنك إذا وعدت أن تنصبنى ملكا على هؤلاء الحيوانات .

ونظرت إليه فى دهشة وأجبته .. وأنا أقذف إلى فمى بإحدى حبات الفول السودانى :

ــ تبرئنى من ماذا ..؟ خير لك أن تفهم هؤلاء الحيوانات أننى سأبلغ قدرى بك عن كل هذا العبث الذى تفعلونه .. وكيف تنطلقون من أقفاصكم ليلا لتعيثوا فى الحديقة فسادا .

ــ قدرى بك ؟.. من قدرى بك هذا ؟

ــ مدير الحديقة .

ــ إنسان مثلك ؟

ــ أجل .

ــ أيها الأحمق .. إذا ثبتت إدانتك .. أعنى إذا ثبتت إدانة الإنسان .. وأغلب ظنى أنها ثابتة .. فهل تظن أنكم ستبقون على حالكم . الظاهر أنه ليس لديك فكرة عن مدى خطورة المحاكمة .. ألا ترى أننا سنضعكم فى أقفاص فى هذه الحديقة وسنسميها « حديقة الإنسان » . ماذا ينفعك فى ذلك الوقت ، قدرى بك أو حتى وزير الزراعة نفسه . إن هذه المحاكمة ستغير نظام الكون ، إن الإنسان سيفقد سلطانه ويهوى من عرشه وسيتحكم فيه الحيوان كما فعل هو فى الحيوان .. ما رأيك فى أن نتفق ؟

وهززت رأسى بالرفض . فما كنت من الحمق بحيث أقبل الاتفاق مع ثعلب .. وفى تلك اللحظة صرخ الأسد مناديا على الثعلب آمرا إياه أن يتخذ مكانه معلنا بدء المحاكمة .

وهمس الثعلب قبل أن يعدو إلى مكانه :

ــ أيها الأحمق المغرور .. ستدفع ثمن غرورك غاليا .

وساد السكون ساحة المحكمة ، وتطلعت ببصرى فرأيت الحيوانات والطيور بكافة أنواعها قد احتشدت فى صفوف متراصة ، وقد أخذت تنظر إلى نظرات مغيظة حانقة مهددة متوعدة .

وبدأ الثعلب يتكلم موجها إلى التهم :

« يا حضرات القضاة .. إن الجالس أمامكم فى هذا القفص هو إنسان ..

واحد من الملايين المنتشرة على الأرض لتعيث فيها فسادا ، وتنشر الذعر والرعب ، وتتحكم فى غيرها من المخلوقات وتسلبها نعمة الحرية التى أنعم الله بها على كافة خلقه .

أمامكم إنسان ، قد يخدعكم مظهره الناعم الخلاب ، وطيبته الظاهرة ، وقد يغريكم هدوؤه ورقته ، ولكننى سأكشفه لكم على حقيقته ، فهو حية رقطاء فى ظاهرها النعومة وفى باطنها سم زعاف » .

وهنا حدثت ضجة فى ناحية من الساحة ، وقوطع حديث الثعلب بفحيح شديد ، واتضح أن الأفاعى ثائرة لما لحقها من إهانة بتشبيه الإنسان بها .

وزأر رئيس المحكمة زأرة قوية سادت بعدها السكينة وعم الهدوء ، وعاود الثعلب حديثه معتذرا للأفاعى :

ـــ إنى لم أقصد بتاتا إهانة الأفاعى ، فإنى لا أكن لها غير الود والاحترام . وليس يضير الأفاعى أن يكون ظاهرها ناعما وباطنها ساما .. فهى أفاع .. وكلنا يعرف أنها أفاعى ، وأنها سامة ، ولقد خلقها الله كذلك ، ولكن يضير الإنسان ، الذى يدعى أنه مخلوق أرقى منا جميعا ، وأن الله خصه بكل المزايا والأفضال .. يضير الإنسان أن يخلق هو مركبا ساما ينفث سمومه فى كل ما حوله .. يضير الإنسان أن يخلقه الله إنسانا ، فيجعل هو من نفسه حية رقطاء .

لنعد إلى موضوعنا الأصلى : كنت أقول يا حضرات القضاة إن هذا الإنسان قد أفسد الدنيا وجلب إليها التعاسة والشقاء ؛ وأنه يظلم أخاه الحيوان ظلما صارخا .

وهنا سمعت أصوات احتجاج على كلمة « أخاه » ، فأشار إليهم الثعلب مهدئا وأردف قائلا :

ـــ متأسف جدا ؛ أقصد أنه ظلم سيده الحيوان ظلما صارخا ، وأنه أساء استعمال ذلك الشيء الذى وضع الله له فى رأسه ؛ وأنه يتقاتل ويدمر الدنيا بلا أدنى سبب ؛ أنا أفهم أن المخلوق يقتل مخلوقا آخر لكى يأكله ؛ أليس كذلك

يا سيدى الرئيس ؟

وهز سيده الرئيس رأسه بالموافقة وقال وهو ينظر إلى :

ـــ بالطبع .. بالطبع .

وتملكنى الذعر من نظرة الرئيس وقوله . وانكمشت فى نفسى ؛ وعاد الثعلب يقول :

ـــ إن المخلوق قد يعذر إذا ما قتل مخلوقا آخر ليأكله ؛ ولكن ما عذر هذا الغبى فى أن يقتل بعضه بعضا ويكدس الجثث فوق الجثث ! ثم يدفنها فى باطن الأرض ؟ ما عذره فى هذا القتل الذى لا مبرر له ؛ ولكن ما لنا ولهذا .. إن هذه الجريمة تخصه هو ؛ فهو القاتل فيها وهو المقتول . وقد تكون الجريمة فى حد ذاتها مفيدة لنا فقد تنتهى بفنائه ، ولكنى ذكرتها لأدلل بها على غبائه وقصر نظره ؛ وعلى أن هذا الشىء الذى وضعه الله له فى رأسه لا يعتبر ميزة ولا فضلا ؛ وأنه ليس هناك ما يدعوه لأن يتحكم فينا ويسيطر علينا .

يا حضرات القضاة : هذا المخلوق الذى يدعى الإنسان قد طغى وبغى وتجبر وتكبر ؛ وخضعنا نحن له وخنعنا دون أى سبب ولا داع ؛ فلا هو بخيرنا عقلا بدليل أنه حتى الآن لم يعرف كيف ينظم عالمه ويؤمن حياته ؛ وبدليل هذه الحروب التى يفسد بها دنياه ويقلق بها راحته ؛ فهو مخلوق تعس شقى ، شقاؤه ناتج عن غبائه ؛ ولا هو بأشدنا قوة ، ولا أجعلنا منظرا ولا أطيبنا قلبا .. كل ما يفترق عنا به هى الخديعة والخسة واللؤم والرياء والنفاق .

ولست أشك بعد كل ما ذكرته فى أنه قد آن لنا أن نأخذ حقنا منه . وأن نثأر لأنفسنا ، وأن نذله كما أذلنا .

هذا هو عرض موجز لشخصية المتهم وأخلاقه ؛ بقى علينا بعد ذلك أن نفصل جرائمه التى ارتكبها ضدنا ، ولست أرى خيرا لذلك من أن أعرض عليكم المجنى عليهم ، وأتركهم يصفون بأنفسهم ما أصابهم من المتهم .

وصمت الثعلب ، وصاح الفيل :

— المجنى عليه رقم واحد .

وهنا رأيت خروفا قد تقدم من بين صفوف المشاهدين واتخذ مكانه بجوار الثعلب ، وبدأ يقدم شكواه من الإنسان قائلا بصوت رفيع :

— يا حضرات القضاة : أنا لا أطلب شيئا كثيرا ؛ لا أريد أكثر من أن أفعل بالإنسان كما يفعل بى . أريد أن يسمح لى بفتح محلات للجزارة أعلق فيها أجسادهم . أريد أن أفتح مسمطا كبيرا أصنع فيه من كوارعه شربة وفتة بالثوم ، أريد أن أصنع من مصارينه ممبارا . أريد أن أشوى طحاله وأسلق كرشته ؛ هذا هو ما يفعله بى الإنسان بمنتهى البساطة دون أن يحس أنه قد ارتكب أمرا إدا ولا فعلا نكرا . أفلا يحق لى أن أطالب بدورى بأن أفعل به مثل ما فعل .

وصمت الخروف ؛ وأخذت أتصور جسدى معلقا فى محل جزارة ؛ وقد دخلت الخطاطيف فى ساق ، وتدلت ذراعاى ورقبتى التى فصل عنها الرأس ؛ وقد تناثرت على جسدى الأختام الحمراء .

ثم تصورت رأسى موضوعا على قفص مستطيل وقد وقف أمامه الخروف المذكور ينادى : « يا جابر » .

وعاد الخروف إلى موضعه بين الصفوف ؛ وصاح الفيل :

— المجنى عليه رقم (٢) .

وتقدم الحمار مخترقا الصفوف حتى وصل أمام القضاة ، واتخذ مكانه بجوار الثعلب وبدأ الحديث :

— من آلاف السنين وأنا مطية لهذا الأحمق المأفون ؛ أحمل عنه أحماله وأثقاله ؛ ولا أجزى منه سوى السب والضرب ؛ أما قد حان الوقت لأن أركب أنا بدورى ؛ إنى لن أحمله أثقالا ولا أحمالا ؛ فقط أريد أن أركبه أنا .

ونظرت إلى الحمار الغبى ؛ وتصورت لو أن كل إنسان قد سار فى الطريق ؛ وقد حمل على ظهره حمارا ؛ اللهم الطف بنا من هذه المحاكمة .

ونادى الفيل على المجنى عليه رقم (٣) ؛ فتقدم ثور كبير ، ولكن قبل أن يصل

إلى مكانه رأيت شيئا يندفع بشدة حتى وصل أمام رئيس المحكمة ، وتبين لى أنها اللبؤة ؛ وسمعتها توجه القول إلى الرئيس :

— هذا الإنسان ، قد أهاننى شر إهانة ؛ فهو يصف نوعا معينا من إناثه باللبؤة ؛ وهو يقصد بذلك إهانتهن وتحقيرهن ؛ فهل يعلم هذا الوقح أنى أشرف من جميع إناثه ؟

ورأيت الأسد قد احمر وجهه وأصابه الارتباك وهمس قائلا للبؤة :

— هذا ليس وقته ؛ ثم إنه حر فى يسمى إناثه كما يشاء ، لبؤة أم غير لبؤة ؛ ماذا يضيرك أنت ؟

وكان الثور قد وصل إلى مكانه وبدأ يقول فى تؤدة :

— هذا الإنسان لن يصلحه شىء إلا إذا ربط فى ساقية وعصبت عيناه ؛ وظل يدور فيها ليل نهار ؛ هذا هو كل مطلبى ولا أظنه بالمطلب العسير .

وتوالى بعد ذلك المجنى عليهم من كافة أنواع الحيوانات والطيور والحشرات والكلاب والقطط والفيران والأوز والبط والفراخ والذباب والنمل والصراصير ؛ كل يعرض شكواه ويطلب الأخذ بالثأر من المجرم المتهم .

وظللت أتلفت إليهم ، وقد عصف بنفسى الخوف من المصير الذى سيتردى فيه الإنسان ، ولم يكن يعزينى إلا يقينى أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون هزلا فى هزل ، وأن الحيوانات لابد عائدة إلى أقفاصها بمجرد إشباع رغبتها من هذا العبث الحيوانى .

وأخيرا انتهى المجنى عليهم من سرد أقوالهم ، وسألنى رئيس المحكمة إن كان لدى ما أقول دفاعا عن نفسى وعن الإنسان ، فأجبته مستعطفا :

— لا أظن لدى ما أقوله دفاعا عن الإنسان ، فكل ما ذكرتموه حق لا كذب فيه ولا افتراء . أما دفاعا عن نفسى فلست أدرى ما ذنبى أنا حتى تحملونى أخطاء البشر وتفعلوا بى مثل ما فعلتم .

— أنت مجرد رمز ، لا أكثر .

ثم وجه القول إلى بقية الحيوانات :

— رفعت الجلسة والحكم بعد المداولة .

أين البوليس ؟ أين رجال الأمن ؟ أين الحكومة ؟

النجدة .. النجدة . لقد نفذ المقدور . لقد بدأت الثورة . لقد أدين الإنسان في المحاكمة الكبرى .

نطق رئيس المحكمة بالحكم فإذا به يقضي بأن يسلب الإنسان سلطانه ، وأن يحل الحيوان محل الإنسان فى كل شيء وأن يبدأ فى تنفيذ الحكم فى التو والحين .

الحيوانات هائجة ثائرة . مندفعة من باب الحديقة . صائحة : يسقط الإنسان .. يسقط المنافق المخادع .. لا إنسان بعد اليوم .

أوقظت بقية حيوانات البلد ، وانضمت إلى الثورة ، واكتظت الشوارع بكتل الثوار المتدفقة كالسيل ..

وانطلقت من قفصى ، وأسرعت إلى أقرب تليفون ، محاولا أن أتصل بمدير الأمن العام لأحذره وأنبئه بما حدث .

ولكن وا أسفاه .. لقد أجابنى قرد .. لقد أسر مدير الأمن واحتلت داره .

وامتدت نيران الثورة إلى كافة أنحاء القطر ، وقامت فى البلاد حرب أهلية بين آدمييها وحيواناتها .

مرت بمصر أيام عاصفة سوداء سفكت فيها الدماء وأزهقت الأرواح ، وأخيرا بدأ الأمر يستقر ، وخبت نيران الثورة ، وتواترت الأنباء على دول العالم فقضت مضاجعها . فلقد كانت نتيجة الحرب الأهلية ، هى فوز الحيوانات وتملكهم زمام الحكم فى مصر وسيطرتهم على مرافق الدولة .

فزعت الدول ، وسرعان ما اتفقت الكتلة الشيوعية مع الكتلة الديمقراطية إزاء الخطر الحيوانى الذى سيدهمهم جميعا ويقلب نظام البشر فى العالم ويغير وجه التاريخ .

الحالة فى مصر مستقرة تماما .. سقطت الوزارة وحل البرلمان وأجريت

انتخابات حرة لأول مرة فى تاريخ مصر ففازت الأغلبية فوزا ساحقا وتسلم مقاليد الحكم حزب الحمير .

الحمير يرتعون فى بحبوحة من العيش . الوزراء محدثو نعمة فرحون بمظاهر الأبهة والجاه والعظمة . مغرقون أنفسهم فى الخطب وحفلات التكريم .. ليس هناك قط ما يدعوهم لإجهاد الفكر ، كل همهم أن يكونوا آمنين فى مقاعدهم متمتعين بمظهر الحكم ، أما الحكم فعلا أو تصريف شؤون الرعية ، فذلك مالا يخطر لهم على بال .

تفشت المحسوبية والفوضى ، وفسد نظام الحكم ، وانتشرت الرشوة والسرقات ، وانقلب الحكم إلى وسيلة للفوز بالأغنام والأسلاب .

ضج البلد ، وثارت بقية الحيوانات على دولة الحمير . تزعزعت الدولة ، وفقدت أنصارها .

أخيرا هوت دولة الحمير ، وحل مجلسهم ، وتعاون الكلاب والمعيز والثعالب والقطط على تولى مقاعد الحكم سويا .

بدأ العراك بين الأربعة الحاكمين .. خرجت الثعالب والقطط ، وبقى فى الحكم الكلاب والمعيز .

. البلد ما زال يئن .. الجماهير ما زالت شاكية باكية ، فما أفادها نباح الكلاب ، ولا خنوع المعيز ، بأكثر مما أفادها جهل الحمير ، غنيمة الحكم هى غرضهم الأول ، فالذى بيده الغنيمة كل همه أن يحتفظ بها ، والباقون لا هم لهم إلا أخذها منه ، والبلد بينهم حائر ضائع .

قوى سلطان الإخوان القرود فى البلد ، واشتد ساعدهم ، وانقلب رئيسهم إلى زعيم سياسى .

البلد تتنازعه الأهواء ، وتتقاذفه الأنواء .

هل من منقذ ؟ هل من معين ؟ يا لضيعة البلد بين كلابها ومعيزها وحميرها وقرودها .

أين أنا من هذه المملكة الحيوانية ؟ لقد قبض على وأودعت أحد أقفاص حديقة الإنسان أمضى اليوم قابعا خلف القضبان ، تمر أفواج الحيوانات على تمتع نفسها بمشاهدتى ومعاكستى .

إنى أبصر أمامى أحد القرود ، وقد أمسك فى يده حفنة من الفول السودانى ، سألته أن يعطينى بعضا فأمسك الخبيث بحبة بين أصابعه ، ثم قذفنى بها بشدة فأصابت عينى .

وضعت يدى على عينى أتحسس موضع الإصابة ، ثم فتحت عينى ، فوقع نظرى على القرد ، وقد قامت القضبان بينى وبينه .. تلفت حولى فإذا بى خارج القفص وإذا بالقرد داخل القفص .. لقد وجدت نفسى ما زلت على مقعدى الذى نمت عليه فى الحديقة أمام قفص القرود ، وقد أيقظنى القرد بعد أن قذفنى بحبة الفول السودانى .

وتذكرت الحلم الذى مر بى ، وتذكرت دولة الحيوانات ونظرت إلى القرد وإلى القضبان القائمة بيننا ، وساءلت نفسى ؛ هل هناك فارق كبير بين دولة الإنسان ودولة الحيوان ؟!

بصقة على دنياكم

الدنيا !!.. ما هي الدنيا ؟.. زينة الليل .. سخرة النهار .. يجلوها الظلام ويكسفها الصباح .. ما شئت بالدجى من أنوار ساطعة ، وزخارف لامعة ، وبالنهار مصابيح عمياء ، وأدوات لا ماء ولا رواء . الدنيا !.. ستار تمثيل حقير فى ذاته . أما ما تراه من جماله وروعته فإنه باطل من تزوير الليل وخدعة من تمويه الأنوار .

« محمد السباعى »

بصقة على دنياكم .. وهل تستحق سوى بصقة ؟

بصقة على دنياكم .. أيها التعسون المساكين .. المتخبطون فى حلكاتها .. الضالون فى دياجيرها .. المتعللون بباطلها وسرابها .

بصقة على دنياكم فإنى مغادرها غير آسف ولا نادم .. بعد لحظات سألقى عن كاهلى أعباءها .. وسأحرر نفسى من قيودها وأغلالها .. وسأغمض عينى فلا يقع بصرى على شرورها ومساوئها .

بصقة على دنياكم من إنسان قد خرج من نطاقها وأنقذ من نيرها .. إنسان على وشك الرحيل .. إنسان هو والعدم سواء .. إنسان ميت .

بينى وبين الموت خطوة .. سأخطوها إليه أو سيخطوها إلى ، فما أظن فى جسدى الواهن بقية رمق تعينه حتى على أن يخطو إلى الموت .. بعد لحظات سيطوينى الموت بين أحضانه . أيها الموت العزيز .. اقترب .. اخط إلى خطواتك الأخيرة فقد طالت عليك لهفتى ، وازداد إليك حنينى ، اخط خطواتك ففيها

الشفاء ومنها الدواء .

ولكن لا .. تمهل برهة .. إن لى مع هؤلاء التعسين حديثا :

أيها الأحياء .. أنصتوا إلى حديث ميت .

لنبدأ الحديث من البداية .. ولنعد القهقرى عشرات الأعوام حيث وقفت فى أول الدرج .. أتطلع ببصرى إلى سلم الحياة الطويل الممتد .. لا تكاد العين تبلغ مداه .

هل رأى أحدكم مشرق الشمس ؟.. هل وقف أحدكم ذات مرة فى روضة غناء ليتطلع ببصره إلى الأفق البعيد وقد صبغته الشمس بلونها الذهبى ؟ هل رأى كيف يبدو منظر الأشجار البعيدة وقد تخللتها الأشعة الذهبية الحمراء . فأبدتها مضيئة مشتعلة كبارقات الأمل ، وصنعت منها منظرا خلابا مليئا بالروعة والجمال ؟.. ثم هل حاول أن يسير ليبلغ ذلك المنظر الرائع الفاتن ويلمس ما فيه من فتنة ، ويرى ما شع من ضياء ؟

ألم تصبه خيبة وحسرة ، وهو يرى نفسه لا يكاد يبلغ تلك الأشجار التى كانت تبدو كأنها رؤوس براكين مشتعلة حتى يجدها كغيرها من الأشجار متربة مظلمة لا شعاع فيها ولا ضياء ؟. ثم ينظر أمامه فيرى المنظر قد تجدد .. وبدت له أشجار أخرى من على بعد وقد سلطت عليها أشعة الشمس أشعتها فكستها نفس الحلة السحرية .. فيحاول أن يقترب ثانية .. فلا يكاد يصل إليها حتى يجدها كالسابقة .. وهكذا تبدو أمامه المناظر رائعة على بعد ، فإذا ما اقترب منها ، أو حل فيها تبدد كل ما بها من سحر وروعة ؟!

لقد بدت لى الحياة وقتذاك وأنا أقف فى أول الطريق كما تبدو لنا المناظر وقد سطعت وراءها أشعة الشمس : شمس الأمل ساحرة فاتنة ، مضيئة مشتعلة ، تدعونى إلى التقدم ، وتحفزنى إلى المسير .. لا أكاد أبلغها حتى أجدها خابية مظلمة . أجدها لا شىء . لا تستحق ذلك الجهد الذى بذلته فى الوصول إليها . وأنظر أمامى فأجد الأشعة ما زالت تسطع ، ويتجدد المنظر المغرى الذى يدعونى

إلى السير فأظل أتقدم وأتقدم.. ما دام هناك شعاع من أمل يسطع ، يحمل لنا الأشياء ، ويغرينا بالوصول إليها ، ونقطع الطريق حتي نبلغ النهاية ، فلا نجد فى كل ما بلغناه شيئا يستحق وعثاء السفر . ونرى شمس الأمل قد غربت .. وشعاع الرجاء قد انطفأ .. فإذا بنا فى حلكة شاملة ودياجير معتمة . وإذا بنا قد وصلنا إلى النهاية ، صفر الأيدى ، منهوكى الأجساد ، محطمى الأعصاب ، واهنى القوى ، فنسأل أنفسنا ماذا أخذنا من الحياة، ولماذا عشنا ؟ فلا نجيب بأكثر من لا شيء ، ولا نملك إلا أن نخرج منها مطاطئى الرؤوس ، محنيى الهامات ، منشدين مع القائل :

وكل ما تقضى من الأمور ،
تعلة من يومنا المذكور
ومتعة من متع الغرور

كان أول تلك المناظر الخلابة المضيئة التى وقع عليها بصرى فى طريق الحياة .. منظرا ملأ نفسى الصغيرة نشوة ، وأفعم قلبى الصبى طربا .. منظرا نقشت صورته فى ذهنى من فرط ما أحدث فى من تأثير .. منظرا براقا خلابا أحاطه الضوء وسطعت من خلفه الأشعة الذهبية . فخلف فى نفسى أثرا عميقا ، ولم أكن أتمنى وقتذاك شيئا غير أن أبلغه ، ولقد خاب أملى ، لا لأنى لم أبلغه ، بل لأنى قد بلغته .. وشتان بين المنظر عندما رأيته ، وعندما بلغته .

لنبدأ وصفه أولا عندما رأيته .. كان ذلك منذ عشرين عاما أو قريبا منه ، وكنا نقطن فى جنينة ناميش .. وكان يومئذ موعد افتتاح البرلمان .. وقد خرجت مع بعض الصبية لمشاهدة الموكب وهو يمر بميدان الإسماعيلية .

وقفت بين الصفوف المتراصة المحتشدة ، وقد تكأكأ الناس من حولى وأخذت أجاهد حتى أتخذ لنفسى بينهم موقفا يمكننى من رؤية الموكب فى مروره ، وكان الطريق قد خلا تماما إلا من بعض الجنود يروحون ويغدون أمام الصفوف ليمنعوا تسلل المارة من رصيف لآخر ، ووقف جنود الجيش بملابسهم

الكاكية ، ووجوههم السمراء ، وطرابيشهم الحمراء ، مصطفين على طول الطريق ، وقد تعالت أصوات ضباطهم بالنداءات العسكرية التى ترتفع معها الأسلحة إلى أكتاف الجند ، ثم تهبط إلى الأرض مرة أخرى ، وكأنهم يشتغلون بزنبلك !

وساد السكون ؛ وتعالت الهمسات من حولى — إن الموكب قد بدأ — وبعد برهة بدأت بشائر الموكب تظهر .. من صفافير ، وموتوسيكلات ، وعربات قد حملت كبار ضباط البوليس بملابسهم السوداء .

وبعد لحظات أخذ الموكب فى الظهور فعلا ، وقد بدت فى طلائعه ثلة من فرسان البوليس ، ثم بدأ بعدها المنظر الفاتن الخلاب الذى أثمل رأسى الصغير .. وخلف فى نفسى أملا ظل يداعبها فى الكرى واليقظة ، وحلما كم تمنيت طوال السنين المتتالية لو تجسد فصار حقيقة .

أبصرت فرسان الحرس ، وقد تقدمتهم الكوكبة الأولى من الخيول الزرقاء ، وعلى رأسها ضابط قد علا صهوة جواده الأشهب ، المرفوع الرأس ، المتين البنيان ، الملفوف الجسد ، البارز عضلات الصدر والساقين ، وقد أرهف أذنيه ، وتفتحت خياشيمه .. وأخذ يتوثب فى ثقة واعتداد .. يمشى على الأرض .. كأنه سيخرق الأرض ، ويرفع هامته كأنه سيبلغ الجبال طولا .

ونظرت إلى راكبه المستقيم الجسد ، الصلب العود ، البارز الصدر ، الممشوق القوام ، الجميل التقاطيع ، الجذاب الملامح . وقد ارتدى حلته الزرقاء ذات الصدر الأحمر المحلى بكردون مجدول من القصب الذهبى البراق ، وامتدت ساقه مستقيمة ملتصقة بجسد الحصان بحذائها الطويل الأسود اللامع وبدا هو وجواده كأنه قطعة واحدة !

ولمحت النساء فى النوافذ يتغامزن ويتبسمن ، والفارس فى طريقه لا ينظر إليهن ولا يأبه لهن ، وبدا لى كأنه إله ، وملأنى إعجاب شديد به .. وتمنيت لو أكون مثله فى يوم من الأيام ، وتخيلت نفسى فى حلته المزركشة وعلى جواده الأشهب

ترمقنى الأنظار بالإعجاب .. وتتمنى الحسان منى ابتسامة ، فأبخل بها عليهن .

وانطبع المنظر الفاتن فى ذهنى .. المنظر الذى تلألأت وراءه أشعة الأمل، فأحاطته بهالة ذهبية ملأته روعة ، وأضفت عليه جمالا على جماله ، ومنذ ذلك اليوم و لم تعد لى أمنية فى الحياة سوى أن أبلغه .

أجل لقد جعلت من الفارس مثلا أعلى .. وأخذت أجد فى السير وهو يلوح أمامى فى أفق الحياة بجماله وروعته تماما كما يلوح لنا منظر الأشجار فى الأفق ، وقد بدت وراءها أشعة الشمس .

وقفت فى أول الطريق .. والأمانى تداعب نفسى وتدعونى إلى السير حتى أبلغ المنظر .. فما كان هناك شيء يجذبنى مثله ، ولو خيرت وقتذاك بين أن أكون إلها أو أكون ذلك الفارس لفضلت الأخير .

ولست أشك فى أنه مامن إنسان إلا و جذبه فى أفق الحياة منظر ، أيا كان . وما من إنسان إلا و كان له مثله الأعلى الذى يتمنى الوصول إليه ، ولكن الذى أشك فيه كثيرا ، هو أن كل إنسان يبلغ ذلك المنظر أو يستطيع الوصول إلى المثل الذى تمنى .. فإنه لا يكاد يبدأ السير حتى يضل فى دروب الحياة ، ويصطدم بعقبات الطريق ، فتحجب عنه المنظر الفاتن وتبدى له منظرا غيره ، وتنسيه مثله الأول ، فيستبدله بمثل ثان وثالث .

ولكنى كنت من نوع محظوظ ، فلقد أخذت أجد فى السير تجاه المنظر الخلاب والمثل الأعلى ، ولست أزعم أنى لم أضل فى دروب الحياة ، أو لم تصادفنى العقبات والموانع . فلقد احتوتنى مسالك الطريق ، وأجهدتنى عقباته ، ولكنى وجدت فى النهاية أنى قد وصلت ، وإذا بى أقف فى المنظر الفاتن ، وإذا بالمثل الأعلى ملء يدى .

أجل .. لقد بلغت أملى !!

أما كيف بلغته ؟. فهذا حديث طويل . لا أظن المجال مجاله ، ولا المقام مقامه ، ولكنى بلغته ، وكفى .

لقد مرت بى الأيام والسنون ، فإذا بالأمانى قد تجسمت ، وإذا بالأحلام قد أضحت حقائق ملموسة ، وإذا بالمنظر الخلاب الذى كان يبدو فى الأفق قد احتوانى ، وإذا بى أنا نفسى قد أضحيت ذلك الفارس الذى أبصرته منذ عشرات السنين .

ترى كيف وجدت المنظر الفاتن عندما بلغته ؟ وكيف وجدت الفارس عندما أصبحته ؟.

الساعة الخامسة صباحا وقد وقفت فى الإصطبل مشمرا عن ساعدى ، أنتقل هنا وهناك ، ضاربا الأرض بقطعة الحديد المثبتة فى كعبى الحذاء الطويل مضيفا بذلك ضوضاء أخرى إلى الضوضاء التى تحدثها أحذية الجنود المنهمكين فى تنظيف الخيل ، الخيل البيضاء الناصعة البياض .

الخيل البيضاء !!. يا لسخرية المنظر الخلاب ، لقد كان فتنة العين فأصبح قذاها .. كان بهجة النفس . فأضحى مصابها وبلواها .

أجل إن الخيل البيضاء الزرقاء ، قد أضحت مصابى فى الحياة .

لقد تحقق الحلم ، تحقق بالضبط ، وأصبحت قائدا لسرية الخيل البيضاء تتقدم الموكب ، ليتنى تمنيت أهون الشرين .

إن الخيل البيضاء ، قد أقسمت أن لا تكون بيضاء .

لقد قضينا الأمس بطوله ، ولا عمل لنا سوى تشطيف الخيل . والجنود يجدون فى عملهم بالفرشاة والمياه والصابون ، ثم بتنا ليلتنا ، وصحونا فى الفجر ، فإذا بجهودنا قد ضاعت أدراج الريح .

كان الوقت ربيعا ، والربيع يصيب كل الناس بغبطة وسرور ، ما عدانا . فالربيع بالنسبة للناس يعنى الزهور ، أما بالنسبة لنا فإنه يعنى البرسيم .

كان مصاب البرسيم فى الأوقات العادية ، ينحصر فى وزنه وفى الساعات الطوال التى نقضيها أمام الميزان عندما يحضره المتعهد ، أما فى أوقات طوابير التشريفة فكان المصاب أثقل وقعا ، إذ كان ينصب بالذات ، على الخيول الزرقاء

ـــ أو على الأصح ـــ قائد الخيول الزرقاء .

كان البرسيم يصيب الخيل بإسهال فيجعل روثها سائلا أخضر يلوث أجسادها إذا ما رقدت عليه ، فيمسى الليل عليها وهى بيضاء من غير سوء ، ولا يكاد يصبح الصباح حتى يضحى بياضها اخضرارا مملوءا بالسوء .

تبدأ عملية التشطيف مرة أخرى ، وظلمة الليل لم تنقشع بعد ، وعبيد الله الذين لم يصابوا بقيادة الخيول البيضاء ، ما زالوا يغطون فى نومهم ، منعمين بدفء الفراش ، وراحة الرقاد . وأنا أغدو وأروح على أسفلت الإصطبل بين بوكسات الخيول ، مستحثا الجنود وبى قلق شديد ، خشية أن يستبين بياض النهار .. قبل أن يستبين بياض الخيل .

وأشرقت الشمس ، وبدأنا نخرج الخيل من الإصطبلات إلى الفناء للتفتيش عليها ، ووقفت بجوار « القومندان » وهو يفحصها واحدا واحدا .

واحسرتاه إن الخيل لم تبيض بعد !!

لقد استطعنا بعد طول الجهد أن نزيل الاخضرار ، ولكن تركت فى مكانه آثار اصفرار ما زالت واضحة فى أجساد الخيل .

وثار القومندان .. فهو يريد الخيل بيضاء ناصعة ولا يقبل أن يكون بها ذلك الاصفرار أبدا .

ما شاء الله !.. ما حيلتى فى هذا الأمر ؟. وأنى لى أن آتى بذلك البياض ؟.. وعادت الخيول إلى الإصطبل ، وعاد الجنود إلى عملية التشطيف ، يحاولون عبثا إزالة تلك الصفرة اللاصقة بأجساد الخيل .

وأخيرا منَّ الله علينا بالفرج ، ووهبنا من لدنه رحمة ، واستطعنا بطريقة ما أن نجعل الخيول بيضاء ، كأنصع ما يكون البياض .

كيف ؟.. لقد وجدنا أن من العبث أن نحاول إزالة الصفرة ، فوضعنا فوقها بياضا ، أجل لقد أحضر كل جندى الحجر الأبيض الذى يمسح به حذاءه وحزامه ، فمسح به حصانه وبعد لحظات كانت الخيل بيضاء من غير سوء .

وانتهينا من التفتيش على الخيل ، وكنت أحس بإنهاك شديد ، فلقد مضى بنا أسبوع ونحن لا نهدأ لحظة واحدة ، وكان أكثر ما يشغل تفكيرنا خلاله ، هو توضيب قوالب الأحذية ، ووضع كل قالب فى حذائه ، ولم تكن المهمة قط بالسهلة الهينة ، فقد كان لكل حذاء من أحذية الجنود الطويلة قالب خشبى ليحفظ تماسكه ، وكان القالب مكونا من خمس قطع ، فلكل حذاء عشر قطع فى أربعين جنديا بأربعمائة قطعة ، وكان لكل حذاء قالبه الخاص به ، ولكن القوالب اختلطت بعضها ببعض ، وكان المطلوب « توليفها » ووضع كل قالب فى الحذاء المناسب له ، لقد كانت مسألة شاقة عسيرة ، شاقة فى مجرد وصفها فما بالكم فى تنفيذها فعلا . أنا نفسى لم أنجح بعد طول الجهد فى توليفها ، وأغلب الظن أنهم ما زالوا منهمكين فى العملية حتى يومنا هذا . فهى مسألة من المسائل التى لن تحل أبدا . أو هى عمل من لا عمل له .

وكان يشغلنا غير مسألة الأحذية ، مسألة التفتيش على ملابس العساكر . وكان القومندان ـــ مساه الله بالخير » لا يحلو له التفتيش إلا فيما بين السادسة والتاسعة مساء، أى فى الوقت الذى يروّح فيه خلق الله عن نفوسهم فيخرجون للنزهة أو يذهبون إلى دور السينما . ولست أشك أن الرجل كان معذورا ، فقد كان متزوجا قديم العهد بالزواج وأغلب ظنى أنه كان يتخذ من التفتيش حجة يتذرع بها للهرب من الدار ، ولكن ما ذنبى أنا ، وقد كنت وقتذاك خاطبا وعاشقا وفى أشد الحاجة لهنيهات الفراغ ؟ ما ذنبى أنا أضيع كل يومى وليلى بين إصطبلات الخيل وعنابر الجنود ، أستمع لقوارص الكلام لأن هذا الجواد ما زال به أثر اصفرار . وذاك الجندى قذر الحذاء .. غير لامع الأزرار .

ما ذنبى وقد كنت أحس وقتذاك أن العمر يذهب سدى ، وأنى لا أكاد أسترق لحظات اللقاء حتى أكون مكدودا منهوك القوى ؟!

وكان هناك إلى جانب أجساد الخيل وملابس العساكر نظافة السروج .. وما كنت أظن أن الوقت يتسع بعد هذا لشىء أبدا .

ولقد كان يعزينى بعد هذا الجهد الذى بذلته ، والوقت الذى ضيعته .. أنى قد حققت أملا طالما داعب رأسى وألح على نفسى ، وأن أوشك بعد هذا التعب أن أصبح فى المنظر الذى فتننى منذ عشرات السنين . فبعد بضع ساعات سأتقدم الموكب على ظهر جوادى الأشهب بملابسى المزركشة .. وسترمقنى الأنظار بالإعجاب ، كما سبق أن رمقت الفارس الذى تمنيت أن أكونه .

وصعدت إلى حجرتى لارتداء ملابس التشريفة المزركشة الزرقاء الحمراء الذهبية ، ووقفت أمام المرآة أتأمل نفسى فى النهاية .. فأحسست بالرضاء ، أو بالعزاء عن ذلك الجهد الذى بذلته والمشقة التى لاقيتها .. فقد وجدت نفس ذلك الإنسان الذى طالما تقت إليه .

وامتطيت صهوة الجواد .. جواد أشهب ، تماما كذلك الذى كان يمتطيه مثلى الأعلى ، وبدأ التحرك من الثكنات .

كان اليوم يوم الاحتفال بالمولد النبوى ، وكان علينا أن نتحرك من ثكناتنا بعابدين حتى نصل إلى القبة ، ثم نسير بالموكب بعد ذاك إلى أرض الاحتفال بالغفير وننتظر حتى نهاية الاحتفال ، ثم نعود بالموكب بعد ذلك إلى القبة ، ونعود فى النهاية إلى عابدين . ولقد استغرقت المسألة منا تسع ساعات متواصلة .

خرجنا من الثكنات فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وبدأنا السير وأنا أحس ببعض الرهبة والخشية ، وزاد من خشيتى اكتشافى بعد برهة أن الجواد الذى أمتطيته لا يفزعه شىء كرؤية الملايات اللف السوداء ، وكنت قد تعودت أن أمتطى جوادا أشد ثباتا ، وأكثر تعودا على المسير فى الطرقات .. ولكننى بدلته بهذا الجواد لجمال منظره .. وصادفتنا الملاءة الأولى فى أول شارع عبد العزيز .. فوجدت الجواد ينظر إليها بحذر ويتوقف .

فربت على عنقه وحاولت تهدئته .. وقلت فى نفسى : ماذا يخشى الغبى من صاحبات الملاءات اللف وهن الخير والبركة ؟.

وأخيرا تقدم الجواد ، وكأنه يجاوز شرا خطيرا ويعبر لغما أو كمينا .. وبدأت

أدعو الله أن يخفف عنا شر الملاءات اللف ويبعدهن عن طريقى .

ولكن الله لم يستجب الدعاء ، بل شاء أن يحشد كل ما فى البلد من الملاءات اللف حينذاك فى شارع عبد العزيز .. فما كنت أسير خطوة ، ألا ويقع بصرى على امرأة فى ملاءة حتى لقد ساءلت نفسى : أين الرجال .. وكان الحصان السخيف يأبى إلا أن يخيف نفسه فى كل مرة .. فما حاول أن يعود نفسه منظرهن قط .. بل كان يجفل أمام كل امرأة وأنا أقوده مرة باللين ، ومرة بالشدة .. تارة بالربت على عنقه ، وتارة بنخسه بالمهماز .

وهكذا استمر الحال بين ثلاثتنا : أنا ، والجواد ، وصاحبات الملاءات ، طيلة شارع عبد العزيز وشارع فاروق والعباسية .. فما انقطع مرورهن فى الطريق لحظة واحدة ، ولا هو انقطع عن خوفه منهن وذعره ، وأنا بينهن وبينه وبين القومندان الذى ينظر إلى فى سخط وتبرم حائر مرتبك وجل .

وأخيرا وصلنا إلى شارع الخليفة المأمون ، ولقد كان الطريق مأمونا فعلا ، فقد انقطع مرور الملاءات اللف .. وبدأت أتنفس الصعداء .

ووصلنا إلى القبة ، وبعد لحظات بدأ الموكب فى التحرك وأنا أتقدمه سائرا بكوكبتى بسير الغار وأحسست فى تلك اللحظة أنى قد وجدت فعلا فى المنظر الخلاب .. المنظر الذهبى الفاتن ، الذى خلب لبى منذ عشرات السنين ، وشعرت أنى قد صرت مثلى الأعلى لا أقل منه قيد أنملة .

ترى ماذا كان إحساسى وقتذاك ؟.

كان أول ما أحسست به ، هو وخز فى فخذى ، كأن هناك سكينا تمزقه .. ولقد كان هناك فعلا ما يشبه السكين . فلقد برز وقتذاك فى فخذ السرج شىء صلب .. لست أدرى من أين برز .. ولا كيف .. ولكن الذى أدريه هو أنه كان يحز فى فخذى كأنه منشار أو سكين .

ولم أستطع النظر أو التفكير فيما حولى ، فقد كنت شارد الذهن ، وكان تفكيرى موزعا ، بين ذلك الشىء الذى يحز فى فخذى ، وبين خشيتى من أن

تبرز من بين صفوف الجماهير المحتشدة على جوانب الطريق .. امرأة من ذوات الملاءة اللف ، فتكون الكارثة الكبرى بالنسبة للجواد المأفون .

وأحسست بالعرق يتصبب من جسدى ، فقد كنت فى حالة من الضيق والألم يصعب وصفها ، ولم يكن هناك بد من التجلد ، ومن أن أسير بارز الصدر ، شامخ الأنف ، ولمحت بين صفوف الجماهير فجأة وجه طفل صغير وقد تعلق بصره بى وبدت عليه أبلغ آيات الإعجاب .. فتذكرت نفسى منذ عشرات السنين .. وعرفت كيف أبدو أمام الطفل .. وقد أحاطتنى هالة ذهبية من آماله المضيئة .. ومر بذهنى كيف أبدو أمام نفسى .

مر بذهنى تشطيف الخيل ودهانها بالحجر الأبيض .. مر بذهنى توليف القوالب والأحذية . مرت بذهنى السخافات التى أضيع فيها عمرى .. تفتيش الملابس ، ونظافة السروج ، و« تقريد » الجنود ، وترويض القومندان .. ثم مر بذهنى ذلك الوخز الذى أحسه فى فخذى .. وتذكرت أنه ما زال علينا أن نقطع مرة أخرى ذلك المشوار الذى قطعناه .

مر كل ذلك فى ذهنى مرور البرق .. ووددت لو همست إلى الطفل : ليتك تعلم .. لقد كنت مثلك لا أعلم .. إن مكانك أفضل أيها الصغير .. مكانك بين الجماهير .. تنظر إلى المناظر الخلابة عن بعد .. إياك أن تقربها . وإلا ذهب عنها كل السحر وكل الروعة .

وددت لو قلت له ذلك ، ولكنى لم أقل . ووددت لو اتعظت أنا نفسى بنفسى . ففهمت الحياة وركلتها بقدمى وعشت فيها محتقرا إياها زاهدا فيها ، لا أجهد نفسى فى الوصول إلى شىء فهى فارغة خاوية ما من شىء بها يستحق الجهد .. « إنها ستار تمثيل حقير فى ذاته ، فأما ما تراه من جمال وروعة فهو باطل من تزوير الليل وخدعة من تمويه الأنوار » .

ولكنى لم أدرك ذلك .. بل خيل إلى وقتذاك أنى قد أخطأت فى اختيار المثل الأعلى ، وأننى تعلقت بقشور المظاهر .. وخلبنى بريقها ولألأؤها ، وأنه كان

من الخير إلى أن أكون رجل فكر ، من أن أكون رجل مظهر ، وأنه يجب على أن أحيد عن الطريق الذى سلكته ، وأن أتخذ لى مثلا آخر غير ذلك المثل الأجوف الذى اتخذته ، مثلا جميل الباطن لا براق الظاهر .. مثلا سليم اللب متين الجوهر ، لا مثلا من هذه التماثيل الجميلة الزائفة .

وهكذا بدأت أنحرف عن طريقى ، وبدا لى فى أفق الحياة منظر جديد ، بعد أن خبا سحر المنظر الأول وأضحى مظلما متربا .

كان المنظر الجديد .. الذى أبرزت سحره أشعة الأمل . هو منظر رجل من رجال الفكر .. رجل يحرك بقلمه الأذهان ويقود الآراء .. رجل واسع الشهرة يستطيع بأسطر قلائل أن يهدم مبدأ ، ويشيد آخر .. رجل يستطيع أن يرتقى بالناس إلى مستوى أفضل .

ولقد تتملككم الدهشة ، وتقولون لى ساخرين : أيها الأحمق ، أى أمل لك فى أن تصبح من قادة الرأى وأنت تقضى حياتك — كما قلت — بين إسطبلات الخيل ، وعنابر العساكر .. وتضيع جهدك فى تقريد الجنود ، وترويض القومندان .. أى أمل لك أيها الغبى فى أن تصبح من رجال القلم والفكر ، وكل ما فى فكرك لا يزيد عن توليف قوالب الأحذية وتبييض أجساد الخيل .

ولكنى أجيبكم : إن لكل إنسان أن يأمل كما يشاء ، فما كانت الآمال لتقف عند حدود العقل ، إن العجب ليس فى أن يأمل الإنسان آمالا غير معقولة ، بل العجب فى أن تحقق له الأقدار هذه الأمال . وهل يصعب على القدر فعل الأعاجيب .

لقد بدأت أجد السير فى طريقى متجها إلى المنظر الجديد ، موليا وجهى شطر مثلى الأعلى ، وأنا كما قلت لكم : رجل محظوظ .

فسرعان ما وجدت نفسى ، أقترب وأقترب .. وأمعن فى الاقتراب ، بكل ما لدى من جهد .. متخطيا الموانع ، قافزا العقبات .. كأنى جواد فى سباق .. سباق مع الأيام ، لقد كنت أعدو ، والزمن يعدو خلفى .. أنا فى عجلة ، وهو فى

عجلة .. أنا أريد أن أصل ، وهو يريد ملاحقتى .

ووصلت أخيرا منهوك القوى مبهور الأنفاس ، ووقفت أمعن البصر فى المنظر بعد أن بلغته .. وتأملت نفسى بعد أن أصبحت المثل الأعلى .. النفيس الجوهر ، الطيب اللب .

واسخريتاه !!

واسخريتاه من رجال الفكر ، وقادة الرأى .

واسخريتاه منهم .. فى بلد أجدب فيه الفكر .. وامحى الرأى .

لقد أصبحت مرة أخرى ذلك الرجل الذى تمنيت أن أكون .. الرجل الذائع الصيت ، الواسع الشهرة .. الذى يحسب الناس لقلمه ألف حساب . الرجل الذى إذا أراد شيئا فعله ، وإذا فعله هز به مشارق الأرض ومغاربها .

ترى هل وجهت الآراء توجيها سديدا ؟.

ترى هل ارتقيت بالناس وسموت بهم إلى مستوى أفضل ؟!

ترى هل سموت أنا بنفسى وترفعت ؟!!

أبدا والله .. لقد وجدت نفسى أشبه ببائع الترمس .. أو البلطجية .

أجل . لقد أصبحت بائع كلمات . وعلى قدر ما يدفعون لى أكتب لهم .. ولست أشك أن بائع الترمس خير منى وأفضل ، فهو يبيع شيئا ملموسا يحس به الناس جميعا بين ضروسهم وفى أمعائهم . أما أنا فأبيع لا شىء . أبيع كلمات بعد لحظات ستذهب مع الريح .. فهذا بلد لا تجدى فيه الكلمات نفعا .. إنما تجدى فيه العصى والسياط .

لقد أصبحت بلطجيا مأجورا ، هذا الحزب يستخدمنى لكى أسب ذلك ، وهذا الزعيم يستأجرنى لكى أهدم ذلك ، وأنا بين هذا وذاك مسلول القلم مرهف الذهن . أكتب وأكتب ، والنقود تتدفق من حولى . لقد كنت تاجرا رابحا أعطى قدر ما آخذ . هذا يريد منى مقالا بعشرة جنيهات ، وذاك يريد بعشرين . إنى أكتب وأكتب .. لا مبدأ .. ولا غرض إلا المال .. وكيف أستطيع أن أكون غير

هذا .. فى بلد كهذا .. بلد فسدت فيه النفوس ، وصدئت الأذهان ، وعميت الأبصار .

لشد ما أخطأت فى مثلى الثانى ، ولشد ما خدعنى منظره الفاتن من على بعد .. لقد أصابتنى خيبة الأمل مرة أخرى ، وأحسست من نفسى ومن الناس بمرارة شديدة .

وكان يجب على أن أرتدع ، وأن أقنع من الحياة بما وصلت إليه ، ولا أجهد نفسي بعد ذلك ، ولكنى حاولت مرة ثالثة أن أخدع نفسى قائلا لها : إنى قد أخطأت المثل مرة أخرى ، وأن هذا البلد لا يجدى فيه الموقف السلبى .. وأنى لا أستطيع أن أكون شيئا بمجرد النصح والإرشاد ، وأن من الحمق أن أكون من قادة الرأى فى أمة لا رأى فيها ، وأن خير ما أفعل هو أن أكون من أصحاب السلطات حتى أستطيع أن أفعل شيئا إيجابيا .

وبدأت أتطلع إلى أفق الحياة مرة أخرى .. ولاح لى المنظر من جديد يدعونى إلى التقدم حتى أبلغه .. منظر أشد من المنظرين السابقين فتنة ، وأكثر روعة ، وأبعد مثالا . منظر كرسى الوزارة .. لقد أضحى مثلى الأعلى الجديد أن أكون رئيس وزارة .

لا تضحكوا منى .. ولا تسخروا .. فلقد قلت لكم إن آمال الإنسان لا حدود لها ، وأنه لا حرج عليه فى أن يأمل ما يشاء .. ولكن الحرج على القدر الذى ينيل الإنسان أمانيه الهوجاء ، فإذا أردتم أن تضحكوا أو تسخروا فاضحكوا من الأقدار الهازلة ، واسخروا من الظروف المجنونة الخرقاء التى جعلت منى فعلا رئيس وزارة .

لقد بدأت أسلك الطريق السياسى .. وأخذت أخوض فى أوحاله ، فقد كان أكثر الطرق التى سلكتها امتلاء بالأوحال والقاذورات .. مستعينا بكل ما وهبه الله للنفس البشرية من نفاق ، ومكر ، ومخاتلة ، ورياء .

وحثث الخطى ، وبدأت أقطع المرحلة تلو المرحلة .. فأصبحت عضوا فى مجلس النواب الذى كان يفتنى منظره فيما مضى .. وكنت أحس له برهبة

ومهابة ، ولست أظنني فى حاجة إلى أن أصف لكم كيف وجدته على حقيقته .. لقد وجدت المسألة كلها لا تعدو أن تكون هزلا فى هزل .. وما استطعت أن أتبين أية صلة بين مجلس النواب والحياة النيابية الحقة . لقد كان ستارا زائفا . كان أشبه بلعبة لتسلية الأطفال أو أشبه بمسرح للتمثيل . لقد كان خدعة وحرام على أن أضيع الكلمات فى السخرية منه فهو لا يستحق حتى السخرية .. إنه لا شىء .. إنه والعدم سواء .

وأخذت أعدو فى الطريق وأعدو ، وشعرت أن الوصول يحتاج منى أن أكون ممثلا مهرجا ، فكنته .. إن الغاية تبرر الواسطة .. ولابد أن أصل إلى الغاية مهما كانت الواسطة . ماذا يضيرنى أن أكون شيخ المهرجين فى أمة التهريج والمهرجين ؟!

وبعون التهريج والنفاق ، والمكر والرياء ، وبدفعة من الظروف الخرقاء الهوجاء .. وعلى أكتاف الحمقى والمخابيل والجهلاء . وصلت أخيرا إلى رياسة الوزراء ، وما أدراكم ما رياسة الوزراء !.

لقد أصبحت أخيرا رئيسا للوزارة .. هل تسمحون لى بفترة أتمالك فيها أنفاسى ؟

تصوروا .. رئيس وزراء !!.

لقد بلغت المنظر السحرى الرائع .. الذى كان يخيل لى أنه أبعد من الجوزاء .. وأكثر استحالة من العنقاء .. لقد أصبحت أخيرا : المثل الأعلى الذى ليس هناك أكثر منه علوا .. ولا أبعد منالا .

لو كانت الأعمال بالنيات فلاشك أنى سأجزى خيرا عن كل ما نويت . لقد خلوت إلى نفسى وحمدت الله على نعمته وعلى ما أوصلنى إليه .

وتذكرت يوما فى صباى كنت أجلس فيه مع بعض الرفاق وأخذنا ننتقد البلد وما وصلت إليه من سوء المآل وقلت وقتذاك لو أصبحت رئيس وزراء ، وملكت بيدى زمام الأمة وتوليت أمرها لأتيت بما لم تستطعه الأوائل ، وأقلتها من عثرتها ، وهديتها سواء السبيل .

قلت وقتذاك : إن أول ما أفعله هو أن أوجه كل جهد إلى الفلاح المسكين فأنفذ قانون تحديد الملكية وأحرم على كل من يملك أكثر من خمسين فدانا أن يشترى أطيانا أخرى ، وأدق الطلمبات فى القرى وأجعل الفلاحين يعيشون كآدميين ، وأجبر أصحاب الأملاك أن يعطوا للفلاح قدر ما يأخذون منه . وأوقف كل صرف على زركشة أحياء الأغنياء وتنميقها وعلى تجميل سراى الزعفران وتوسيع حدائقها الغناء ، وأصرف تلك المبالغ التى تغدق على أحياء الموتى المقبورين فى الأحياء الفقيرة .

قلت وقتذاك : إنى سأوقف حفلات التهريج الحكومية ، وسألهب ظهر الروتين الحكومى وأوقظه من رقدته، وأمنع الاستثناءات والوساطات ، وقلت أشياء كثيرة وقتذاك .

ولقد تذكرت ما قلت .. ونويت أن أفعله .. ولكنى لم أفعل منه شيئا .. ولقد كنت والله معذورا .

كيف ؟ لقد كنت أشبه بالمسطول أو « الدائخ » فمنذ أن توليت الوزارة وأنا أحس بالخازوق تلو الخازوق . فالمعارضون لا هم لهم سوى محاولة إسقاطى ، فهم يرجعون كل خطأ يحدث إلى إهمالى .. فلو نفق حمار .. فأنا المسؤول ويجب على أن أستقيل . ولقد تملكنى منذ أن توليت الوزارء غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس .. فتناسيت كل ما كنت أود أن أفعل .. و لم يعد فى رأسى سوى شىء واحد .. وهو كيف أرد كيد المعارضين ، وكيف أحافظ على نفسى فى كرسى الحكم .

لقد كانت تقودنى فى كل عمل رغبتى فى البقاء .

ترى بالله كيف أجسر أن أواجه النواب برغبتى فى تنفيذ قانون تحديد الملكية وكلهم من أصحاب الأملاك !

ترى كيف أفرض الضرائب ، حتى أوجد المال اللازم لإصلاح حال الفلاح ، وكل من أستند إلى عونهم يزعجهم مجرد ذكر الضرائب .. بل كيف أعمل جادا .. وأنا أضيع كل جهدى ووقتى فى التهريج والتظاهر الذى يضمن لى طول البقاء ؟!

كيف أحاول منع الاستثناءات والوساطات والمحاسيب والأقارب ، والأنصار ، والمعارف يفرضونها على فرضا ، ويضطرونني إلى فعلها أو الانفضاض من حولى ؟!

حتى السياسة الخارجية لم يكن يوجهني فيها إلا حب البقاء ، فأنا مائع حائر بين الداخل والخارج .. أشتد مع الخارج لأرضى الداخل ، فإذا ما اكفهر لى وجه الخارج أرخيت له حبا فى البقاء .

إنى متعب ، إنى مجهد ، ولكن السلطان لذيذ ، والحكم ممتع .. لقد كرهني الكثير من الناس دون سبب ، سوى ما قال الشاعر :

إن نصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام ، هذا إن عدل

أصبت اليوم برصاصة ، وأنا خارج من مجلس الوزراء . لقد قتلونى.. بلا سبب . فما فعلت أحسن ولا أسوأ مما فعل غيرى ، فكلنا فى الهوى سوى .

إنى أحتضر . ولست أشك أنهم سيجعلون منى بطلا .. لست أدرى لم ؟

إن كل ما فعلته هو أنى قتلت !! يا لهم من حمقى أغبياء !.

إنى أحس أنى خارج من دنياكم بعد لحظات .

بصقة عليها ، فإنى أكرهها . رغم أنى قد وصلت فيها إلى أقصى ما يصل إنسان . إنها دنيا هاوية ، ومهما وصل الإنسان فيها فما زال فى القرار .

بصقة على دنياكم ، فما صادفت فيها سوى كل أجوف زائف عاطل .

بصقة عليها ، وعليكم ، أيها الحمقى الأشقياء .

غدا ستخلدون ذكراى وستشيدون لى قبرا بين قبور العظماء .

بصقة على قبور عظمائكم .

فلو بعثوا من الأجداث لقالوا لكم : « أيها الحمقى ، كفى سخفا ، اصرفوا النقود التى شيدتم بها قبورا لتخليدنا على الفقراء من أحيائكم ، الفقراء الذين يتضورون جوعا ويرتجفون عريا ، أيها الحمقى أحيوا أحياءكم خيرا من أن تحيوا ذكرى موتاكم » .

دُنـــــيـــا

كان يمكننى أن أتركهم بلا عقول ، ولست أشك فى أن هذا كان خيرا لهم ولى ، فإنهم كانوا سيجعلون من دنياهم خيرا مما جعلنا من دنيانا ... يجعلون منها دنيا سهلة بسيطة خالية من التعقيد والارتباك ، دنيا شبيهة بدنيا الحيوان لا اختراعات فيها ، ولا ابتكارات ، ولا محاكم ، ولا قضاة ، ولا حروب ، ولا أى شىء من هذه الأشياء المعقدة . دنيا يجرى فيها كل شىء كما خلقه الخالق هينا لينا سهلا بسيطا .

بطل هذه القصة الوحيد الذى لا بطل فيها سواه .. هو الشيخ سيد فرقع ، ولقد اختلفت مشاعرى نحو الرجل وتبدلت على مر الأيام .

لقيته أول مرة فأثار فى نفسى رعبا شديدا .. واستمر هذا الرعب يملأ نفسى كلما صادفته .. فترتعد فرائصى وأولى منه فرارا ، ومرت الأيام فبدأت ألم أطراف شجاعتى إزاء الرجل ، وتملكنى شعور بالرغبة فى إثارته والضحك عليه ، والسخرية منه ، وانضممت إلى زمرة العابثين منه ، المشاكسين له .. واستمرت عجلة الزمن فى الدوران .. فإذا بشعور السخرية والهزء قد تطور فأضحى عطفا وحدبا ، فلقد داخلنى إحساس بأن الرجل مصاب ، وتملكنى رغبة جارفة فى معاونته والترفيه عنه .

ولست أشك فى أن هذا التطور فى إحساسى نحو الرجل لم يكن إلا مظهرا لتطورى أنا نفسى ، فقد استمر هو ، كما هو ، لم يطرأ عليه تغيير ، اللهم إلا ما أصابته به السنون من تحطم وتهدم ظهر أثره فى انحناء ظهره وتهدج صوته .

لنبدأ بوصف الرجل فى مرحلته الأولى .. المرحلة التى كان يثير خلالها الذعر فى نفسى .. كنت وقتذاك تلميذا فى السادسة من عمرى بمدرسة وادى النيل الابتدائية الواقعة فى شارع السد بالقرب من ميدان السيدة زينب .. ولا أظن الخمس والعشرين سنة التى مرت بى ، قد استطاعت أن تمحو من ذاكرتى صور المناظر التى كانت تحيط بى وقتذاك ، فهى ما زالت باقية فى الذهن واضحة جلية .

الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقد اندفعنا متزاحمين من باب المدرسة الخشبى العريض ، وأخذنا نتفرق شعبا وفرادى ، حتى ذابت كتلتنا فى جمهرة المارة الذين غص بهم الطريق ، وابتلع الشارع المكتظ أجسادنا الصغيرة . كان أول ما يقع عليه بصرى هو بائع « البطاطا ـــ المعسلة ، والمشوية ، بنار الفرن » بعربته التى يتوسطها الفرن الأسود الذى احتوى فى جوفه كنوز البطاطا المكتنزة الممتلئة . فإذا ما تجاوزنا بائع البطاطة ، والفرن الأفرنجى ، ومحل الجزارة ، والعطارة ، وقع بصرنا بعد ذلك فى الناصية المقابلة على دكان المعلم عبد المعطى السماك ، وقد فاحت منه رائحة السمك المقلى .. وبدا السمك مرصوصا فى واجهة الحانوت فى صوان نحاسية . تدلت من أطرفها عيدان البقدونس التى تستعمل ـــ فرشة ـــ يرص عليها السمك . وفى أحد أركان الحانوت بدا قدر على النار يتصاعد منه البخار وتفوح منه رائحة تفتح الشهية ، وأخذ الأسطى عبد المعطى يقلب القدر ويغرف منه الكسبرية فى أوان من الفخار يتناولها الزبائن الجالسون القرفصاء بجوار الحانوت .

كان كل شىء فى دكان عبد المعطى السماك يبعث فى نفسى الرضا والإعجاب .. رائحة السمك المقلى ومنظره .. ورائحة الكسبرية ولونها .. وأكوام الطماطم التى رصت على شكل أهرام .. والبرطمانات الزجاجية المليئة بالمياه الملونة ، والمرايا التى زينت بها جوانب الدكان . وصوت السمك يطشطش فى الزيت ، وهذه السمكة الضخمة البراقة العينين التى وضع فى فمها حزمة بقدونس . كل شىء يثير فى نفسى الإعجاب .. ويجعلنى أتمنى لو اندفعت

إلى الدكان أجول فيه كما أشاء .. كان المكان فى نظرى مكانا نموذجيا يقضى فيه المرء عمره .. لولا شيء واحد .. شيء واحد ، هو الذى كان يتلف فى نظرى حسن الدكان ، ويصدنى عنه ويخيفنى منه .. شيء واحد هو الذى كان يذهب عن نفسى الطمأنينة ويملؤها بالقلق .. هو ذلك الرجل السمين ذو العمامة ، والعباءة ، والمركوب الأصفر ، الذى كان يجلس متربعا على الرصيف أمام الحانوت وقد انهمك انهماكا تاما فى تقشير الثوم أو دقه فى الجرن .

كان مبعث خشيتى من الرجل هو ما قاله لى أحد أصدقائى من الصبية أنه رجل مجنون ، وأنه رآه مرة ثائرا فى الناس يعدو وراءهم بعكازه الغليظ . و لم أدر مبلغ ما فى قول صاحبى من الصدق ، فما رأيته قط فى حالة هياج ، وإن كان ذلك لم يمنعنى من أن أتقيه ، وأنأى بنفسى عنه ، فلا أحاول قط السير على الرصيف الجالس عليه .. بل أسير على الرصيف المقابل .. لأنى أبصر من ملامحه ، ومن عصاه ، ما يجعلنى أوجس منه خيفة .

وفى ذات يوم وقعت الواقعة ، وحدث ما أثبت قول صاحبى ، وما ملأنى من الرجل رعبا . خرجت من المدرسة كعادتى ، فسمعت فى الشارع ضجيجا ، وصخبا .. وأبصرت بصاحبنا الشيخ سيد فرقع قد وقف على ناصية حارة السيدة ، وقد أمسك بعصاه ، وأخذ يضرب بها الأرض بعنف ، وقد علا الزبد شفتيه ، وانتفخ وجهه ، واحمرت عيناه ، وأخذ يصيح بأعلا صوته :

ـــ يا عسكرى .. يا عسكرى .

وأصابنى ذعر شديد ، بالرغم من أن هياج الرجل لم يكن يتعدى نفسه ، فما حاول أن يؤذى أحدا من الناس ، بل استمر يكرر استغاثته بطريقة مروعة ، متواصلة ، حتى بح صوته ، وتراخى جسده ، و لم تعد لديه أية قدرة على الصياح ، وأخذ يحدث نفسه بكلمات مدغمة غير مفهومة . وكان المعلم عبد المعطى قد خرج إليه وأخذ يربت على كتفيه مهدئا إياه قائلا : « كفايه يا شيخ سيد .. كفايه » . ثم أخذه من يده وأجلسه مكانه على الرصيف أمام الدكان .

ومنذ ذلك اليوم .. وأنا ما أكاد أبصر الرجل حتى يتملكنى الرعب وأطلق ساقى للريح .. وتكررت رؤيتى له وهو فى حالته تلك من الهياج والصراخ ، وقد علت فمه الرغاوى البيضاء ، وبدت فى عينيه نظرات مخيفة كأنه إنسان مذبوح يصارع سكرات الموت .

واستمر الحال كذلك سنة ، وسنتين ، وثلاثا ، والرجل كما هو .. لا أرى منه إلا مبعث ذعر ، ومورد خوف حتى بدأت أعتاده ، ولم يعد يرعبنى صراخه ، أو يخيفنى هياجه ، وخاصة أنى لم أجده قط قد آذى إنسانا . وبدأت أرى فيه شيئا يبعث على التسلية ومنظرا يستحق المشاهدة كالأراجوز ، أو الحاوى ، أو القرد ، وأخذ الأمر يتطور حتى انتهى إلى أننا — أنا وعصبة من الصبية — بدأنا نكره أن نرى الرجل هادئا .. فكنا إذا ما وجدناه ساكنا فى مجلسه أمام الدكان يقشر الثوم ، أخذنا نتحرش به ونستثيره بمختلف الطرق والوسائل .

ولقد بدأنا أول مرة فى إهاجته بأن خطف أحدنا عمامته ، وأخذنا نتقاذفها بأيدينا فى وسط شارع السد ، وهو يعدو وراءنا صائحا مغتاظا ، حتى أعياه العدو ، فانتابته حالة الهياج .. وبدأ يضرب الأرض بعصاه ويصرخ مستغيثا : « يا عسكرى » .

وتكرر الأمر بيننا وبينه . حتى بدأ ينالنا منه بعض الأذى ، وحتى بدأ الناس يرثون له ويضجون من معاكستنا له فتقدموا بالشكوى إلى ناظر المدرسة ، فكان نصيبنا « علقة ساخنة » . كففنا بعدها عن مشاغبة الرجل وإهاجته .

ومرت السنون ، فغيرت منى الكثير . نضج منى الذهن ، ونما الجسد ، وبدأت أدخل فى دور الرجولة ، والرجل كما هو ، إما جالسا فى صمت يقشر الثوم ، أو هائجا يستنجد بالعسكرى .

وبدأت أحس عطفا عليه .. وتمنيت لو استطعت أن أعاونه . وحاولت ذات مرة أن أدس فى يده قرشا ، وهو فى جلسته متربعا أمام جرن الثوم .. فنظر إلى

ثم إلى القرش ، وقذف به بعيدا دون أن ينطق ببنت شفة .. وانهمك فى دق الثوم كعادته .

و لم أيأس منه ، وظللت أستجدى صداقته ، حتى اطمـأن إلى أخيرا .. وعرفنى تمام المعرفة ، وبدأ يهش لى ، ويقبل منى بعض العطايا .

وأدركت أن الرجل لا يحس بتلك النوبات التى تصيبه ، والتى تتركه منهوك الجسد ، محطم الأعصاب ، وكان الناس من حوله يعتقدون أن الرجل — عليه أسياد — وأنها تتملكه أحيانا فتجعله على تلك الحال التى تعتريه ، وعلمت منهم أنهم قد ذهبوا به إلى الزار بضع مرات دون فائدة ، فإن الأسياد التى تركبه من نوع لعين .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء، صادفت الرجل فى عودتى إلى الدار ، وقد استلقى مكانه على الرصيف أمام الحانوت المغلق ، وأصابتنى دهشة من استلقاء الرجل على هذه الحالة ، وخشيت أن يكون قد أصابه سوء . واقتربت منه لأتبين ما به ، وهززته بيدى ، فاستيقظ ، وسألنى عما أريد .

قلت له مترفقا :

— ماذا تفعل هنا يا شيخ سيد ؟!.

— نائم .

— و لم لا تذهب لتنام فى حجرتك ؟

— لقد طردونى منها .

— من الذى طردك ؟!..

— صاحبتها .

— و لم ؟

— أسكنتها لآخر حتى تنتفع بأجرها فإنى لا أملك أجرا .

— ومنذ متى تنام هنا ؟!..

— منذ شهرين ، لقد وجدت مشقة فى المبيت هنا فى بادئ الأمر ، ولكنى

تعودته .. السلام عليكم يا سيدى .

وانطوى الرجل على الأرض ، وأغمض عينيه ، كان ذلك منه بمثابة أمر لى بالانصراف ، ولكننى لم أنصرف .. فقد أحسست بمرارة من نومة الرجل ، وخيل إلى أن القر الذى يخز جسده يخز جسدى ، وصممت على ألا أتركه هكذا ، وأن أوجد له مأوى يقيه شر البرد . وفكرت برهة ، فخطر لى آخذه معى إلى الدار ، وأن أضجعه فى أى مكان بها ، ولكننى خشيت من الأهل أن يتهمونى ، كعادتهم بالسخف والبله ، وأن يطردونى معه ، فيكون نصيبى النوم بجواره أمام الدكان .

وفجأة تذكرت الحجرة الخشبية الكائنة تحت السلم ، تلك الحجرة المظلمة الضيقة المتربة ، التى يضعون فيها بعض الكراكيب ، وحمدت الله أن هدانى إلى تذكرها ، فقد وجدت فيها مفتاح الموقف ، فهى بلاشك خير مأوى للرجل ، فستقيه من عرى ، وتدفئه من برد ، ولن يشعر به أحد من الأهل ، فسأوقظه مبكرا قبل أن يستيقظ أحد منهم ولاشك أنه يستطيع أن يأوى إليها بعد ذلك دون أن يحس به أحد .

ولم أتردد بعد ذلك برهة ، بل جذبت الرجل من يده ، وأقنعته بأن يسير معى ، لأنى سأهيىء له حجرة يبيت فيها بلا أجر ، وسرت وإياه مخترقين حارة السيدة عابرين « الأبوة » المؤدية إلى جنينة ناميش ، والرجل يقرع الأرض بعصاه الثقيلة قرعات منتظمة ، تشق سكون الليل ، حتى وصلنا إلى البيت ، ودلفنا فى صمت إلى الداخل ، وتسللت إلى أسفل السلم حتى وصلت إلى باب الحجرة ، ودفعته بكتفى فأحدث صريرا مزعجا ، وأشعلت عود ثقاب فظهرت الحجرة على ضوئه الباهت ، وقد كدست فيها الأتربة ، وخيمت عليها العناكب ورأيت فيها دكه خشبية عريضة تصلح لنوم الرجل فأشرت إليها قائلا :

ـــ ما رأيك ؟!.

ولم يجب ، بل تقدم إلى داخل الحجرة ، واستلقى على الدكة ، وأغمض

عينيه ، وقال دون أن ينظر إلى :

ـــ السلام عليكم .

وتركت الرجل ، وأنا أحس فى قرارة نفسى بالرضا ، وعزمت على أن أستيقظ مبكرا لأوقظه وأصرفه ، قبل أن يستيقظ أحد من الأهل .

ولكنى لم أوقظه فى الصباح ، لأنه هو الذى أيقظنى ، وأيقظ كل من فى الدار .

أجل ... لقد هببنا جميعا من نومنا على صوت الشيخ يصيح بأعلى صوته : « يا عسكرى » .

لعنة الله عليك يا شيخ سيد .. لقد فضحتنى ، وفضحت نفسك . هل كان لابد للنوبة أن تصيبك فى هذا الوقت المبكر ؟

وهرولت إلى أسفل السلم ، حتى أوضح للأهل حقيقة الأمر ، وحتى لا يظنوا أن الرجل لص فيصيبه منهم أذى .

وأخيرا هدأت نوبة الرجل ، وأخذت أشرح لهم حقيقة الموقف ، وأفهمتهم كيف وجدت المسكين يقضى ليله أمام باب الحانوت على الرصيف ، لأنه لا يجد له مأوى .. واستطعت أن أقنعهم فى النهاية بأن نخصص الغرفة الخالية للرجل المسكين حتى تكسب فيه ثوابا .

وهكذا اتخذ الشيخ سيد الحجرة أسفل السلم مأوى يقضى فيه ليلته ، ومرت الأيام فتعوده أهل الدار ، فقد كان الرجل ـــ فيما عدا النوبات التى تصيبه والتى قد أخذت تخف شيئا فشيئا ـــ رجلا هادئا ، طيب القلب ، حتى لقد بدأنا نفكر فى أن نتخذه بوابا للبيت ، ونوفر عليه مشقة تقشير الثوم ودقه للمعلم عبد المعطى .

وعرضت الأمر عليه ، فأبدى منه ارتياحا ، وكف من ذلك اليوم عن الذهاب إلى مقر عمله أمام دكان السمك و لم يعد يفارق الحجرة أو باب الدار .

ومرت الأيام بالشيخ سيد وهو هادئ مستقر ، وانقطعت عنه النوبات

أو كادت ، وبدأ يقضى جل وقته مختفيا فى حجرته ، ولاحظت أنه قد صنع لحجرته مفتاحا فلا يترك الحجرة إلا وقد أغلق الباب جيدا .

ولم يثر فى نفسى هذا التصرف من الرجل كثير دهش وظننته يقضى وقته فى الصلاة والعبادة ، وأنه يغلق باب الحجرة حتى لا تكون موطئا للداخل والخارج ، ولكن الشىء الذى أثار دهشتى حقا هو ما لاحظته ذات مرة من أن الرجل يحول إلى حجرته بعض الحصى والأتربة ، وفى مرة أخرى يحول بعض الجير والأسمنت والرمل والحمرة من عمارة تبنى بجوارنا .

أدهشنى من الرجل هذا الفعل وحيرنى أمره وساءلت نفسى : ترى ماذا ينوى الشيخ سيد أن يفعل بهذه المواد التى يحولها إلى حجرته ؟ وبدأت أقرن فى ذهنى هذا التصرف من الرجل بكثرة اختفائه داخل حجرته وحرصه على إغلاق الباب ، فلم أشك أن فى الأمر سرا ، وأخذت أجهد الذهن فى محاولة استجلائه .

ماذا يفعل الرجل ؟

يرمم جدار الحجرة ؟

جائز ، ولكن لم هذا التخفى والتستر ؟

ولم لم يسألنا أن نرممها له ويوفر على نفسه مشقة العمل ؟

ترى هل يبنى حجرة داخل الحجرة ؟ ولكن لم ؟

هل تراه يبنى مخبأ لشىء يحرص عليه ؟

محتمل جدا ، بل هذا هو الشىء الأقرب إلى العقل .

إن الرجل لابد أن يكون لديه مبلغ مدخر من المال وهو يحرص عليه ، ويريد أن يبنى له مخبأ أمينا فى باطن الأرض ، لقد ذكرنى ذلك الخاطر بفكرة أخرى .

من يدرينى أن الرجل المخبول لا يعد لنفسه قبرا داخل الحجرة حتى تكون الحجرة مأواه حيا وميتا ؟.

وازداد بى التفكير ، واختلط الأمر على ، حتى عزمت فى النهاية على استجلاء الحقيقة بالتسلل إلى حجرة الرجل ورؤية ماذا يصنع .

وفى نفس المساء ، وأنا عائد إلى الدار ، لم أصعد السلم بل اتجهت إلى أسفله ، فقد رأيت بصيصا من الضوء يبدو من ثقب الباب .

و لم أطرق الباب بل دفعته بيدى ، حتى أفاجئ الرجل وأرى ماذا يصنع . ولكن الباب لم يفتح فقد كان مغلقا من الداخل ، فاضطررت إلى الطرق ، وأجابنى صوت الرجل من الداخل :

ــ من ؟!

ــ افتح يا شيخ سيد .

ــ ماذا تريد ؟..

ــ سؤال بسيط .

ــ أجله لباكر .. إنى نائم .

ــ إنك لست بنائم .

ــ كان يجب أن أكون نائما .

ــ إذا فيمكنك أن تستيقظ .

وأبدى الرجل علامات التأفف ، ثم سمعت صوت شىء ثقيل يجر على الأرض كأنما هو يحرك الدكة التى ينام عليها . ومضت فترة طويلة قبل أن يفتح لى ، حتى اضطررت إلى أن أستحثه :

ــ افتح يا شيخ سيد .

وأخيرا فتح الشيخ سيد ، ووقف بجسده فى الباب يحول بينى وبين الدخول ، ولكننى لم أترك له الفرصة لكى يفعل بل دفعته جانبا ، ودلفت إلى الحجرة فلم أجد بالحجرة شيئا غريبا ، لا شىء أكثر من أن الدكة جرها الرجل كما توقعت إلى منتصف الحجرة ، وأبصرت بأكوام الأسمنت والجير والحمرة والرمل والتراب الأسود ، وقد وضعت فى صناديق متجاورة ، ووجدت عجينة من الطين قد وضعت فى ركن الغرفة وبجوارها صفيحة مليئة بالمياه .

ونظرت إلى الشيخ سيد ، وقد أمسك بيده كوزا ملىء بالمياه ، وأشرت إلى

أكوام المونة وقلت ضاحكا :

— ما شاء الله يا شيخ سيد ، مبروك الحجرة الجديدة التي تنوى بناءها .

— بارك الله فيك ، على كل حال ، وإن كنت أرى أنك قد بخستنى حقى بقولك حجرة .

وانطلقت مقهقها .. وقلت للرجل فى سخرية :

— أقصد البيت الجديد .

— ما زلت تبخسنى .

— العمارة ؟!

— عيب يا سيدى .. أنا أصنع عمارة ؟

— إذا المدينة ؟.. مدينة الشيخ سيد فرقع .

ونظرت إلى أكوام الجير ، والرمل والأسمنت والحمرة التى لا يزيد كل منها على بضع حفنات ، وأردفت قائلا فى سخرية وأنا أربت على كتف الرجل :

— الواقع يا شيخ سيد أن هذه المواد لا تكفى لأكثر من مدينة ، فإذا كنت تنوى أن تنشئ قطرا بأكمله فلابد من زيادة المونة . يمكنك أن تسرق غدا بعض كميات أخرى من المونة .. المونة التى تستعمل فى بناء العمارة المجاورة ، أعنى القارة المجاورة .

ونظر إلى الرجل المخبول وهز رأسه فى أسف ، وقال فى لهجة رثاء :

— عبيط !!

— أنا عبيط ؟! الله يسامحك يا شيخ سيد .

— أقصد عبيط فى فن الإنشاء ، والبناء ، والتعمير .

ثم مد يده فجذب بها رأسى وقرب فمه من أذنى وهمس قائلا :

— إنى أنشئ دنيا .

— دنيا ؟

— أجل . أجل .. دنيا .. عالم بأكمله .. كون جديد .

ثم ترك الرجل رأسي ودفع الدكة التى توسطت الحجرة بقدمه إلى ناحية أخرى ، فانزاحت عن مئات القطع الطينية الصغيرة التى بدت متراصة متلاصقة فى صفوف منتظمة . ونظر إليها الشيخ سيد ، وقد بدت على وجهه أبلغ آيات الإعجاب ، وبعد أن تأمل فيها برهة تطلع إلى وقال فى كبرياء وتفاخر :

— ما رأيك ؟

— عظيم !! شيء جميل جدا .. أما دنيا !!

— أنا ما زلت فى البداية ، هذا قليل من كثير ، هذه نواة الدنيا التى بدأت فى إنشائها ، هؤلاء بعض خلقى الذين شرعت فى خلقهم .

— ما شاء الله .

— خير لك أن تستبدل — ما شاء الله — بما شاء الشيخ سيد ، فأنا بالنسبة لهؤلاء الخلق من الطين الراقدين أمامك ، كالله بالنسبة لكم .

— أستغفر الله العظيم .

— وعلام الاستغفار ، وماذا يمكن أن يكون فى قولى أو فى عملى من الكفر ؟ أنا أحاول التشييد والبناء لا التدمير ولا الفناء .

ولم أجد من الحكمة أن أدخل مع المخبول فى مناقشة ، أو أن أثير معه جدلا دينيا ، ففكرت برهة ثم قلت لنفسى : إن خير طريقة لمعاملته موافقته على كل ما يقوله ، « وأخذه على عقله » .

وأخذ الشيخ سيد يتأمل القطع الطينية الصغيرة المصطفة على الأرض وهز رأسه قائلا :

— صنع دنيا ليس بالشيء الهين ، إنه يحتاج إلى عمل شاق وجهد متواصل .

— بالطبع .. بالطبع . إنها دنيا . كان الله فى عونك .

— كما سأكون فى عون عبيدى .

— إن شاء الشيخ سيد .

وبدت الغبطة على وجه المعتوه وربت على كتفى قائلا :

ــ أحسنت ، لقد بدأت تحسن التعبير فى الدنيا الجديدة .

وانحنى الرجل فرفع بيده بضع قطع طينية ذات أربع أرجل ، وأخذ يتأملها معجبا بها ثم قال :

ــ لقد صنعت لهم كل شىء .. كل ما يحتاجونه .. من حيوانات ، وطير ، وحشرات .. حيوانات يأكلونها ، وحيوانات تأكلهم .. حشرات يفتكون بها .. وحشرات تفتك بهم .. لقد انتهيت من كل التوابع والحواشى . لقد أعددت لهم كل ما يلزمهم .. ولكن بقى إعدادهم هم .. بقيت المشكلة الكبرى ، مشكلة الخلق أنفسهم .

ونظرت إلى مئات القطع الطينية ذات الساقين ، ولم أدر أية مشكلة قد بقيت أمام الرجل ، بعد أن صنع كل هذا العدد من الخلق .. وماذا ينقص دنياه الطينية بعد هذا .. وقلت له متسائلا :

ــ ماذا تعنى بالمشكلة الكبرى ، مشكلة الخلق أنفسهم . ألست قانعا بكل هذا الذى خلقت من العبيد ؟. إنى لأرى دنياك تامة كاملة يا شيخ سيد ، وليس عليك إلا أن تتركهم فى الأرض ، وتستريح على دكتك .. أعنى تستريح فى سمائك وتطل عليهم من آن لآخر من ثقوب الدكة .. وتطلب منهم أن يصلوا لك ويحمدوك .

ــ لا .. لم ينته عملى بعد . إنى لم أصنع سوى الأجساد وهى مسألة كما ترى سهلة هينة .. ويمكن لأى إنسان عملها .. ولكن بقيت أمامى المشكلة الكبرى ، مشكلة صنع العقول ، وتوزيعها على هذه الأجساد المكدسة أمامك .. توزيع العقول يا سيدى على العبيد هى المشكلة الكبرى . لقد كان يمكننى ــ التصلقة ــ وكان يمكننى أن أتركهم بلا عقول . ولست أشك فى أن هذا كان خيرا لهم ولى ، فإنهم كانوا سيجعلون من دنياهم خيرا مما جعلنا من دنيانا .. يجعلون منها دنيا سهلة بسيطة خالية من التعقيد والارتباك .. دنيا شبيهة بدنيا الحيوان لا اختراعات فيها ، ولا ابتكارات ، ولا محاكم ، ولا قضاة ، ولا حروب ، ولا أى شىء من

هذه الأشياء المعقدة .. دنيا يجرى فيها كل شيء كما خلقه الخالق هينا لينا سهلا بسيطا .

كنت أستطيع — التصلقة — فأتركهم بلا عقول ، ولست أشك فى أن هذا سيريحنى ، كخالق ، راحة كبرى ، ولكنى لست بالخالق المكسال .. إنى أريد أن أخلق دنيا حقيقية ، بكل ما فيها من مشاكل ومساوئ ، ومصاعب .. أجل يا سيدى لابد من أن أوزع العقول على عبيدى ، لابد من أن أفسد دنياهم بها .. فما ابتلى إنسان بشر من عقله .

ونظرت إلى الرجل الذى سيوزع العقول ، وسألته فى لهجة كسوتها ما استطعت من الجد :

— وماذا يمنعك يا شيخ سيد من أن تفعل ؟

— لا شيء ... لا شيء أبدا .. إنى أحاول الآن مزجها وخلطها .. لا تظن أن صنع العقول .. عقول البشر .. بالشيء الهين .. إنها أشياء معقدة مربكة .

وتوقف الرجل عن الحديث ، ثم التفت إلى الصناديق التى وضع فيها الأسمنت والرمل والحمرة والجير والتراب الأسود ، وأشار إليها قائلا ببساطة :

— هذه هى المركبات .

— أية مركبات ؟

— مركبات العقول .

— هذه المونة هى مركبات عقول عبيدك ؟

— وماذا يدهشك فى هذا ؟

— أبدا .. أبدا .. إذا كان هذا هو مركب أجسادهم — وأشرت إلى عجينة الطين — فلا عجب أن يكون هذا هو مركب عقولهم .

وتأملت الرجل برهة فوجدت عليه سيما الهم والتفكير فسألته قائلا :

— وكيف تنوى خلط المركبات ؟

— ليست كلها بنسب واحدة ، فلابد لها من أن تتفاوت وإن كنت أرى أن

هناك مركبا لابد أن يوضع فيها جميعا فهو المركب الأساسى للعقل البشرى .

ومد يده فأخذ حفنة من صندوق الأسمنت وأعطانى منها قليلا ، فسألته قائلا :

ـــ الأسمنت ؟.

وانفجر الرجل ضاحكا من قولى ـــ أسمنت ـــ وجذب أذنى إلى فمه وهمس قائلا :

ـــ تعلم يا سيدى .. تعلم ، لا تضحك علينا البشر ، ماذا يقولون عليك إذا سمعوك تقول إن العقول البشرية تتكون من الأسمنت ؟.

ـــ لا تؤاخذنى يا شيخ سيد ، إنى كما وصفتنى جاهل بفن الخلق والإنشاء ، ولقد بدا لى أن المركب يشبه مادة الأسمنت التى نستعملها عندنا فى البناء .. ماذا تسمونه عندكم معشر الخالقين ؟

ـــ مركب السخف .

ـــ مركب السخف ؟!!

ـــ أجل يا سيدى ، مركب السخف هو المركب الأساسى فى العقل البشرى .

ـــ إن الإنسان أسخف مخلوق على ظهر الأرض .. إن السخف أهم الأشياء التى يميز بها عن غيره من الحيوانات .

ـــ أمر غريب :

ـــ لا غرابة فيه ألبتة ، ولو رغبت فى أن أعدد لك أمثلة على سخف الإنسان لنفد العمر دون أن تنفد الأمثلة .. خذ مثلا بسيطا يحضرنى الآن :

أذكر ذات يوم أن أحد الحكام كان قد أتى من سفر وسيمر فى طريقه على حانوت المعلم عبد المعطى ، وطلب من المعلم عبد المعطى أن ينصب التعاليق والزينات ، ويحشد العمال من رجال وصبية للهتاف ، والصياح ، وأن يحضر الموسيقى ، والطبول ، ورفض المعلم عبد المعطى بادئ الأمر ، وأخبرهم أن له رخصة سلاح متأخرة فى المحافظة . فأحضروها له بعد نصف ساعة ... وقال إنه

يريد نقودا لتوزيعها على العمال فأعطوه النقود .

ومر الحاكم فى اليوم الموعود ، فكانت الزينات على أكملها .. والهتاف على أشده ..

قل بالله عليك يا سيدى من الذى خدع بالزينات والهتاف : الشعب الهاتف يعرف لم هتف ، والحاكم الذى تلقى الهتاف يعرف لم هتفوا له .. وخصوم الحاكم يعرفون جيدا كيف أجريت عملية الهتاف لأنهم سبقوه إليها فيما مضى ، إن لم يكونوا هم أنفسهم مبتكريها ، فلم كان التعب وعلام المشقة ؟.

هل هناك مخلوق غير الإنسان يمكن أن يرتكب مثل هذا السخف ؟ أو لو كانت عقولهم قد خلت من مركب السخف ، أكان يمكن لهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟.

وأجبت لهم أن يفعلوا ما فعلوا ؟.

وأجبت الرجل لأول مرة إجابة مخلصة :

— لا أظن .

واستمر الرجل يعدد الأمثلة قائلا :

— قل يا سيدى ، هل يمكن مهما بلغ من غباء الحمير أن يجتمعوا ليتسلوا بمشاهدة بضعة حمير يقلدون أنفسهم فى النهيق والرقص ؟ طبعا لا ..

ومع ذلك فالإنسان لا يطربه شىء قدر أن يشاهد الإنسان يقلد نفسه .

هل هناك أدل على سخف البشر من احتشادهم فى المسارح ليشاهدوا بعضهم يقلد البعض الآخر .. أفلا يكفيهم أن يشاهدوا الأصل الذى يعيش بينهم فعلا .

هل هناك أدل على سخف الإنسان من أنه لا يكاد يبتكر اختراعا ليهيىء له الراحة والنعيم حتى يقلبه إلى وسيلة للتدمير والفناء ، بل إن الاختراعات نفسها من مبدئها ليست إلا مظهرا لسخفه ، ماذا كانت حاجته إلى الطيران والتحليق فى الجو ، ألكى يتنقل بسرعة ؟. وما حاجته إلى السرعة .. كله سخف فى سخف .

ولو أمكننا قياس مبلغ سعادة الإنسان بمبلغ سعادة أية فصيلة من فصائل الحيوان ، لرأينا الحيوان أسعد .. وحتى الشقاء الذى يصيب الحيوان لابد أن يكون مبعثه الإنسان .

يا سيدى إن مركب السخف هو المسيطر فى حياة الإنسان .

هل رأيت حيوانا يحتسى الخمر حتى يفقد وعيه ويحملوه كخرقة بالية ؟..

هل رأيت أسخف من مخلوق يمسك فى يده لفافة يحرق أحد أطرافها ، ويمتص من الطرف الآخر دخانا يملأ به صدره ، ثم يخبرك أنه يكره التدخين ولا يرى فيه أية فائدة ، ويتمنى أن يقلع عنه ولكنه لا يستطيع ؟

هل تريد أمثلة أخرى لسخف الإنسان ؟

ـــ لا داعى ، إنى أعرفها كلها ... لأنى إنسان .

وانحنى الرجل فأخذ حفنة من الرمل وقال :

ـــ أما هذا فمركب الرياء والنفاق والكذب ، ولابد أن أضيف منه « بعضشى » إلى كل عقل ، فهؤلاء البشر لابد لهم من هذا المركب ، حتى يمكنهم من أن يخدعوا أنفسهم ويخدع بعضهم بعضا . لابد لهم منه لكى يستروا شرورهم . .

وصمت الرجل فأشرت إلى الحمرة وسألته :

ـــ وما هذا المركب ؟!..

ـــ مركب الإجرام الذى لابد منه لبعض العقول ، حتى تنشأ المحاكم ، ويعين القضاة ، ووكلاء النيابة ، ويعيش المحامون وما يتبعهم من كتبة وعرضحالية .. كيف تكون حال الدنيا بدون هؤلاء ، ألا تدرى أنهم مبعث تسلية كبرى ؟ كيف يوجد هؤلاء إذا لم يتوفر مركب الإجرام ؟

ـــ وهذا المركب (وأشرت إلى الجير) ماذا تسمونه يا ترى ؟..

ـــ مركب الطيبة والخير .. لابد أن أضيف منه لبعض العقول ، حتى يحدث التوازن ، لابد فى الدنيا من هؤلاء الطيبين الخيرين ، فهم أشبه بالزيت الذى

يسهل حركة الماكينات ، ويلطف من حرارة احتكاكها ، وإلا احترقت وتحطمت .

ومد الرجل يده فى جيبه ، وأخرج علبة نشوق صغيرة وفتحها بحرص ، وهمس فى أذنى :

ـ هنا يا سيدى ، جراثيم الحب . سأبذر منها فى النهاية واحدة فى كل عقل . إنها هى سبب كل ما يحدث من عجائب وغرائب ، إنها هى التى تفعل فى الدنيا المستحيل ، إنها تبطل فعل ما تريد من المركبات ، إنها تحول مركب الإجرام إلى طيبة ، والطيبة إلى إجرام ، إنها تجعل الإنسان يفعل كل ما لا يخطر على بال إنسان .

وأقفل الرجل العلبة بحرص ، وأعادها إلى جيبه ، ثم أشار إلى التراب الأسود ، وقال فى مرارة :

أما هذا فهو مركب الخديعة والدهاء .. كم أكره هذا المركب ، وكم أود لو خلت منه دنياى .. ولكنى لا أستطيع . لابد لها أن تكون دنيا كغيرها .

هذا المركب الأسود سأوزعه على الكثير من العقول .. وسأخص بالتوزيع : الإناث من المخلوقات . سأخص المرأة بقدر كبير من المركب الأسود ، وسأسميها فى دنياى : الجنس الأسود ، لا الجنس اللطيف .

وأدهشنى رأى الرجل فى النساء ، وهممت بسؤاله عن سر سخطه عليهن ، ولكننى رأيته يشير إلى أحد الرفوف الذى وضع عليه أربعة تماثيل من الطين ، أحدها أكبر من الثلاثة الأخر وقال الرجل :

ـ من تظن هؤلاء ؟..

ـ أليسوا ضمن عبيدك ؟

فهز الرجل رأسه بالنفى وعدت أتساءل :

ـ من يكونون إذا ؟

ـ هذه التى تراها فى اليمين زوجتى ، لقد وهبت لها كل ما أملك فى الحياة ،

ولكن ميكروب الحب والمركب الأسود قاداها إلى خديعتى فهجرتنى ، وفرت مع رجل آخر .. أجل لقد سرقها .. رجل .. أما هؤلاء الثلاثة ، فهم أولادى ، لقد سرقوا هم الآخرون ، سرقهم عزرائيل ، الواحد تلو الآخر ، لقد استنجدت كثيرا ، وصرخت أنادى العسكرى ، حتى يضبط السارق ، ويعيد إلى ما سرق ، ولكن لم يجبنى أحد ، ؤوجدت نفسى أخيرا أعيش فى الحياة وحيدا .

لقد سلبت منى الدنيا كل شىء ، بعد أن وهبت لى كل شىء .

وصمت الرجل ، وأطرق برأسه ، وخفت صوته ، وبدا كأنما يحدث نفسه :

— لم لا أصنع لنفسى دنيا أستعيد فيها ما فقدت . أستعيد زوجتى وأولادى .

ثم رفع رأسه وهزها قائلا :

— إذا كانت دنيا كم قد خذلتنى ، فلن تخذلنى دنياى .

ونظرت إلى الرف الذى صفت عليه التماثيل الأربعة ، فوجدت كتلة من الطين ، قد وضعت فى أقصى الرف ، وسألت الرجل قائلا :

— وما هذه ؟

— عقلى .. عقلى أنا .

— ولم لا تضعه فى رأسك ؟

— أوَتظن أننى إذا وضعته فى رأسى ، أكنت أستطيع أن أفعل كل هذه السخافات .. وأن أتعب نفسى فى خلق هذه المخلوقات المتعبة ، وأحتمل كل مشاكل دنياهم .. يا لك من إنسان !.

فى جهنم

لقد أبصرت كل أنواع الناس .. أصحاب اللحى والمسابح والعمائم .. وأصحاب الذنوب والخطايا والجرائم .. كلهم قد زج بهم هنا .. فى جهنم .. لقد استطاعت ستر النفاق وحجب الكذب والرياء أن تستر شرور البعض فى الأرض ، فبدوا خيارا أبرارا . أما فى السماء فقد رفعت الحجب ، وأزيلت الستر .. فإذا كلهم أنجاس مناكيد .. وإذا كلهم زبائن جهنم !..

أنا عائد من جهنم .. جهنم الحمراء .. وسأحلق بكم فيها نصف ساعة .. لا تفزعوا .. نصف ساعة ليس بالشىء المثير .. فغدا سنقضى وتقضون فيها أطول من نصف ساعة .. قد نقضى نصف ساعة أو نصف قرن ... وقد يخلدنا ويخلدكم ما فعلناه وفعلتم من سيئات فى هذه الأرض . لا تدعوا الطيبة .. فما أظن أحدنا بخير من الآخر .. وما أظن أحدنا بمفلت من سوء المصير .. فشرور الدنيا قد لحقتنا ولحقتكم .

أيها الناس .. إن الحال من بعضه . فهل لكم فى زيارة قصيرة إلى جهنم الحمراء .. نصف ساعة فقط على سبيل التجربة ، ومن باب العلم بالشىء .. نصف ساعة .. لا أظن فيها كثير مشقة أو كبير عناء .

زحام شديد .. وأجساد محتشدة مكدسة .. ضجيج وعجيج ، وصخب وصياح .. كأننا فى زفة أو فى مولد .. وقد أخذت الكتل البشرية المتراصة تتحرك ببطء تجاه الباب الضخم المتسع الذى علق على أحد جوانبه سهم يشير إلى

الداخل ، وقد كتب عليه « دخول فقط » ، وبدا على مقربة منه باب آخر به سهم يشير إلى الخارج كتب عليه « خروج فقط » .. وبينهما علقت لافتة عريضة كتب عليها : « جهنم وبئس المصير » .

كانت الجماهير كلها محتشدة فى باب الدخول .. أما باب الخروج فقد بدا مقفرا خاليا .. وهبت علينا من الباب موجة من ريح حارة لافحة . تصبب على أثرها من أجسادنا العرق واختلط بالثرى المتصاعد من الأرض الهابط على أجسادنا .

وأحسست من فرط الازدحام والحر أنى على وشك الاختناق ، وكادت تخمد منى الأنفاس وتزهق الروح .

ونظرت إلى القوم المتزاحمين حولى وقلت فى نفسى : « أيها الحمقى .. أتزاحم حتى على جهنم ؟ أتكأكؤ حتى على السعير الذى سيشوى أجسادكم ؟! » .

ووجدت نفسى أتحرك مع الركب ، وعبرت الباب ، ودلفت إلى الداخل ، ومن ورائى أمواج الأجساد تندفع الموجة تلو الموجة .. واللوريات الشبيهة بلوريات المسجونين تلقى حمولتها البشرية وتعود فارغة لتأتى بغيرها .. وغيرها .

وخفت وطأة الزحام من حولى قليلا ، واستعدت القدرة على تحريك أعضائى ، وذهب عنى الذهول الذى تملكنى من رهبة الموقف ..

وبدأت أعود إلى نفسى بعض الشىء .. وتطلعت بعينى أستطلع المكان وأتبين من حولى من الناس .

مدهش !! ترى من ذهب إذًا إلى الجنة ؟.. إذا كان كل هؤلاء قد دفع بهم إلى جهنم ؟! وتذكرت وقتئذ قول عمر الخيام :

نبأنى إن غدا أهل الجنان زمرة النساك أعداء الدنان
والأغانى أى خير تبغيان بعد ذا فى جنة الخلد وما
ضمنت لا حبذا فيها المقام

وقلت لنفسي : إن الرجل كان مبالغا في حسن الظن بالناس .. وأنه لابد قد تبين خطأه عندما نزل مثلي بجهنم ورأى ما رأيت .

لقد رأيت حولي كل الناس . كلهم قد تساووا في المساوئ أعداء الدنان ومدمنيها .. النساك وغير النساك ، الأشرار والأخيار .. أو على الأصح من يبدون لنا على ظهر الأرض أخيارا .

لقد أبصرت كل أنواع الناس .. أصحاب اللحى والمسابح والعمائم .. وأصحاب الذنوب والخطايا والجرائم ... كلهم قد زج بهم هنا .. في جهنم .. لقد استطاعت ستر النفاق وحجب الكذب والرياء أن تستر شرور البعض في الأرض فبدوا خيارا أبرارا ، أما في السماء فقد رفعت الحجب وأزيلت الستر .. فإذا كلهم أنجاس مناكيد ، وإذا كلهم زبائن جهنم !!

واحسرتاه !.. لقد تركت الجنة خاوية على عروشها . لن أقول من رأيت .. لا داعي للفضائح وهتك الأسرار . لقد وجدتهم كلهم وكفى .. كلهم بلا استثناء .. كانوا هناك .

وأشار لي البعض بالتحية ، وتكبر على البعض وترفع ، كما كانوا يترفعون في الحياة .. إنهم لم يتبرأوا بعد من حمق الغرور وجنون الكبرياء .. لا بأس عليهم .. بعد لحظات سنصبح كلنا في اللهب سواء .. أو على الأصح .. شواء .. وتتساوى ، أو تستوى في النار « كوارعنا وكوارعهم » .. وضلوعنا وضلوعهم ، وأحشاؤنا وأحشاؤهم ، وسنصبح وإياهم لقمة سائغة للسعير !!

ونظرت حولي أفحص في المكان .. فذكرني بفرن الرمالي وحمام الثلاث .

ذكرني بفرن الرمالي ، وأفرانه الحمراء السوداء ، ذات الباطن المتأجج المضيء ، والظاهر الخامد الأسود المظلم .. وقد اصطفت على مدى البصر تئز في جوفها النيران وتصهل صهيل الخيل تنتظر الغذاء ، وقد وقف أمامها الزبانية بوجوههم المكشرة — الملحوسة — التي قد لوثها هباب الفرن وترابه . كانوا أشبه بالفرانين والفحامين . وكان العرق يتصبب من أجسادهم فيجرى إلى

الأرض سيولا ... كانت أيديهم لا تكف عن العمل لحظة فهى فى حركة دائمة .. يدفعون الوقود فى أجواف الأفران النهمة التى لا تشبع من جوع .. وكانوا من فرط جهدهم يلهثون كأنهم فى سباق .

ونظرت إليهم نظرة إشفاق ، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. إنى على الأقل خير من هؤلاء الزبانية المساكين الذين حكم عليهم بجهنم مؤبدا .

إنى سأمضى مدتى فى الجحيم ، ثم أعود بعدها إلى الجنة ، فألهو بالحور العين ، وأجرع بعد المهل ، شهدا وخمرا .

إنى سأعيش فى الجحيم بأمل .. يعيننى على احتمال سعيره ولهيبه .. أمل فى العودة إلى الجنة .. أما هؤلاء الزبانية فما أملهم ؟..

ماذا بعد النيران والأفران . ماذا بعد الأجساد المشوية . ماذا بعد كل هذا العرق المتصبب والجهد الضائع ؟

والتفت إلى أحدهم بوجهه المنهك المكدود ، فأحسست بالعطف عليه والرثاء له ، وتملكنى إحساس جارف بالرغبة فى معاونته .. لقد تعلمنا أن يعين بعضنا فى الأرض .. فما بالك فى السماء .. ماذا على لو عرضت على الزبنى التعس مساعدته .. فحللت محله فى العمل لحظات حتى يشم نفسه ويتمالك قواه ؟

ونظرت إلى المسكين وأشرت له بالتحية مبتسما ، وقلت له فى كرم وأريحية : « خلى عنك » !

ولم يفه الزبانى بكلمة ، بل بادلنى نظرة شاكرة ، وخلى عنه فعلا .

وتملكتنى الحيرة والدهشة ، فما كنت أتوقع أن — يخلى عنه — بمثل هذه السرعة ، إذ لم أكن — حين عرضت عليه المعاونة — بجاد فيها كل الجد .. فقد كنت متأكدا أنه لن يقبل .. وكان أقصى ما أنتظره منه أن يقول لى « عشت » ويستمر فى عمله ، ولكنى وجدت الرجل قد مد يده بالجاروف الضخم فسلمه إلى ، وجلس يلهث على حجر قريب .

وأمسكت بالجاروف حائرا .. إذ لم يكن من الشهامة أن أعيده إليه بعد أن

تطوعت لمساعدته .. و لم تكن لى دراية بفن الفرانة ، فما اشتغلت فرانا فى حياتى قط . فما بالكم وأنا أنقلب فى آخرتى فأضحى من الزبانية .. وأشتغل فرانا فى الفرن الأكبر ؟!.

ولمحت شيخ الزبانية مقبلا من بعيد بجسده الضخم ، ووجهه المخيف ، وقد أمسك فى يده بعصا غليظة ، وأخذ يستحث الزبانية على العمل ، وأسقط فى يدى ، وخشيت على نفسى وعلى الزبنى التعس من أن يكشف شيخ الزبانية ما حدث .. فأسرعت أغرف بيدى الخالية بعض هباب الفرن فألوث به وجهى وجسدى ، و لم تمض لحظة حتى كنت قد اتخذت موضعى أمام فوهة الفرن ، وانهمكت فى دفع الوقود فى باطنه مقلدا بقية الزبانية . ومر بى شيخ الزبانية وجاوزنى دون أن يكشف من أكون .

ومرت بى برهة وأنا منهمك فى عملى تمام الانهماك كأنى والزبانية سواء ، حتى بدأت أحس بالتعب ، وانتظرت أن يقوم الزبنى ، فيشكرنى على ما أسديت له ، ويتناول مجرفته ويقول لى كما قلت له من قبل : « خل عنك » ، ولكن الشقى لم يفعل .

وانتظرت فترة أخرى حتى أحسست أن عضلاتى قد بدأت تتصلب ، وأنى لم أعد أقوى على الحركة ، ونظرت خلفى لأستحثه بنظرة مستعطفة وأذكره بالمثل : « إن كان حبيبك عسل .. ماتلحسوش كله » . ولكنى بهت عندما لم أجد الزبنى فى مكانه .

يا للخبيث .. لقد تركنى وهرب .. لقد فر الوغد ، وتركنى أتعزى بقولنا الأرضى : « لا تصنع المعروف فى غير أهله » .

وأسندت على يدى المجرفة برهة .. حتى أتمالك أنفاسى وأستعيد قواى .. ولكنى سمعت صوت شيخ الزبانية يصيح بى ، فعدت أواصل العمل .

ومر الوقت وأنا أعمل كآلة ميكانيكية ، لا أكاد أخلد إلى الراحة برهة حتى يصيح بى الصوت اللعين فأعاود العمل .

وبدأت أفكر .. ما النهاية .. لقد كنت والله « مدبا » ، كأخيب ما يكون المدب .

ما لى أنا ولهذه الأريحية ، ما لى أنا بمساعدة الزبانية أو غير الزبانية . لم أتدخل فيما لا يعنينى ؟.. لِمَ لم أفعل كبقية خلق الله فأنتظر دورى فى الاحتراق والاكتواء والاستواء وفى شرب المهل .. وأكل الضريع الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع .. ثم أعود بعدها إلى الجنة فأخلد فيها أبدا .

ما لى أتطوع لأكون زبنيا فى الجحيم .. وإلى متى سأظل هكذا أدفع بالوقود فى جوف الفرن ؟! لقد جف ريقى .. والتهب جسدى وتصلبت ذراعى .. وكلت ساقى .

وإلى متى ستستمر الحال على هذا المنوال .. هل يمكن أن تستمر إلى مالا نهاية ؟. هل يمكن أن أكون قد حكمت على نفسى بأن أكون « زبنيا مؤبدا » ؟ هل يمكن أن أستمر هكذا بلا أمل إلى الجنة أو فى حورها وولدانها ؟

وتملكنى الحنق واليأس .. وقلبت لنفسى : إنى لابد أن أفعل شيئا .. فإن من الجنون أن أقبل هذا المآل .. لابد أن أفعل شيئا .. فأى شىء خير مما أنا فيه ؟

ونظرت إلى الزبنى الذى يشتغل بجوارى فوجدته منهمكا فى عمله .. فحاولت أن أوجه نظره إلى وهمست « هش » . ولكنه لم يجب . فعدت أهمس ثانية : « هش » .

والتفت إلى الزبنى بوجهه الأغبر الأسود ، وقال وهو مستمر فى عمله :

— مالك ؟

فسألته فى صوت خفيض :

— إلى متى يستمر العمل عندكم هنا ؟

— إلى متى ؟.. ماذا تعنى بمتى ؟.. ليس عندنا هنا متى ، متى هذه تتعلق بالزمن ، فإذا لم يعد هناك زمن ، فلا لزوم لمتى .

وكرهت من الزبنى هذه الفلسفة الفارغة وعدت أسأله :

— أليس عندكم عطلة .. أليس عندكم وقت للراحة ؟

— اشتغل أيها المكسال .. ليس فى جهنم راحة ، ولا عطلة ، ومن يقوم بحرق هؤلاء الخنازير ؟.

وهممت بأن أرد على الزبنى إهانته . فقد تملكنى الحنق وأنا أراه يصفنا بالخنازير ، ولكنى كتمت غضبى وعدت أسأله :

— أليس عندكم مصلحة عمل .. لترعى حقوقكم ؟

— تقصد مفسدة عمل ، لإفساد العمل وتدليل العمال ؟. لا . ليس عندنا هذه المصلحة التى تقول عنها . الظاهر أنك زبنى مستجد .

— هذا خطأ بين .. إن حقوقكم ضائعة .. إنكم فئة تعسة .. إنكم ...

ولم أتم قولى فقد سمعت صفيرا شديدا يصم الآذان ، ورأيت بعض الزبانية يقسمون الناس جماعات تصطف أمام الأفران .. فعلمت أن — الشغل الجد — قد بدأ .. وأننا — باعتبار أننى من الزبانية لا من الناس — على وشك أن نلقى بهؤلاء الخنازير — على حد قول جارى — إلى سقر وبئس المقر .

وأصابتنى إلى ذاك رجفة ... وتملكنى الجزع ... لقد كنت فى دنياى رجلا وديعا مسالما . ما حاولت قط أن أحرق حشرة ضئيلة ، فما بالكم وأنا أبصر أمامى فوجا من البشر — مهما قيل عن آثامهم وشرورهم فى نظرى بشر — ينتظرون دورهم مرتاعين مذعورين .. لكى ألقى بهم فى جوف الفرن حتى تشوى وجوههم وتُصهر أمعاؤهم .

أنا أفعل هذا ؟. لقد قلت من قبل ؛ إنى لم أشتغل فرانا . ولكنى مع ذلك تحاملت على نفسى ، حتى استطعت أن أقلد الزبانية فى إلقاء الوقود إلى جوف الفرن .. أما الآن ، فقد أضحت المسألة جد عسيرة .. جد عويصة .. لقد كان على أن أشتغل كبابجى .. كان على أن أصنع من هؤلاء الخراف الآدمية : نيفة وكباب ... وكفتة .. وطرب .. لا .. هذا شىء مستحيل ، هذا شىء فوق الطاقة . إنى لا أجسر .. إنى لا أستطيع .

من كان يتصور هذا ؟.. أنا الرجل الطيب الهادئ .. الذى لم يزد ما فعلته من جرم فى حياتى على بضع مرات من « البصبصة » أنقلب فى آخرتى مجرما أثيما . وقاتلا شريرا .. أنا الذى لم أحرق فى حياتى حتى سيجارة ، أحرق فى آخرتى كل هذا القدر من البشر ؟!

وعصفت بنفسى الأوهام ، وبدأت أتصور « طشطشة » الأجساد داخل الفرن ورائحة شياط الجلود المحترقة ، وعويل البشر وصراخهم ، وتوسلاتهم إلى واستعطافهم .. وتخيلت أنى لابد مشفق عليهم ، نادم على ما فعلت بهم .. وأننى لابد مسرع إلى أقرب حنفية مياه لكى أملأ منها بالصفيحة فأطفئ النار المتأججة فى الفرن وأنقذ الأجساد المحترقة .

وقطع على الأوهام صوت رنين صادر من خلفى ، رنين أشبه برنين طاسات العرقسوس ، وتملكتنى الدهشة ، وعجبت فى نفسى من أن يسمحوا ببيع العرقسوس فى جهنم .. وقلت إنها لابد أن تكون طريقة للترفيه .. والتفت خلفى فقد كنت أنا نفسى فى أشد الحاجة إلى شيء أبل به ريقى . وصممت أن أتناول كوبا من العرقسوس رغم كرهى له .

ورأيت خلفى أحد الزبانية وقد حمل على ظهره قربة كبيرة وأمسك بطاستين نحاسيتين يقرع إحداهما بالأخرى .. وأصابنى الاشمئزاز من القربة .. وقلت ما ضرهم لو وضعوا العرقسوس فى إبريق نحاسى لطيف بدل هذه القربة القذرة السوداء .. ولكن شدة الظمأ جعلتنى أتجاوز عن منظر القربة وأهتف بصاحبنا :

— اعطنى كوبا .

ونظر إلى الزبنى بائع العرقسوس فى دهش بالغ كأنه ينظر إلى مخبول وقال زاجرا :

— أيها الأحمق .. هذا للزبائن فقط !!.

وتملكنى الغيظ .. وعجبت من أن يحرم الزبانية .. حتى مما يتمتع به المذنبون ، وعدت أسأل الرجل :

— ولم يحرم علينا العرقسوس ؟..

— عرقسوس !! .. أيها الغبى !

وقلت متداركا خطئى :

— أقصد الخروب .

— كفى هزلا .. فليس عندى من الوقت ما أضيعه معك .. دعنى أمر حتى أوزع عليهم الحميم يصبونه فى أجوافهم .

— الحميم ؟!!.. يا ساتر يا رب .

لشد ما كنت حسن الظن بأهل جهنم .. كيف دفع بى الغباء إلى الاعتقاد أن الرجل يحمل عرقسوسا .. بدل الحميم والمهل ؟

ورأيت الرجل يندفع بقربته بين الصفوف يصب الماء المغلى فى الطاسات ويدفعها إلى الناس لكى يلهبوا بها أجوافهم ويحرقوا أحشاءهم .

وتلفت حولى فوجدت الزبانية كلهم قد بدأوا العمل ، وسمعت العويل يتصاعد من حولى حتى ليكاد يصم الآذان . وبين أصوات العويل يتصاعد رنين طاسات حاملى المهل يجوسون بين الصفوف .

ولم يكن هناك من لم يبدأ عمله سواى ... ولمحت شيخ الزبانية مقبلا من بعيد ... فلم أجد بدا من أن ألم أطراف شجاعتى وأقدم على العمل ، وأبدأ بحرق نصيبى من البشر ... إنهم محرقون ... محرقون ... فلو لم أحرقهم أنا .. لحرقهم ذلك الزبنى الوغد المكسال ... الذى حاولت أن أصنع فيه معروفا ، فتركنى وفر !!.

ورفعت عينى إلى صفوف البشر المتراصة أمامى وأخذت أستعرضها بنظرة سريعة عابرة .. ووقع بصرى على أولها .. فتملكنى العجب وفغرت من الدهش فمى ، وحاولت جهدى أن أكتم صيحة كادت تفلت من شفتى ، وهتفت فى صوت خافت مبحوح :

— أنت ؟!!

أجل والله لقد كانت هى .. هى .. هى .. كآخر عهدى بها فى دنيانا ، ما تبدل فيها شىء ولا تغير .. اللهم إلا شىء واحد ، وهو أنها نضت عنها ثيابها التى كانت تستر بها جسدها ، ووقفت مجردة حتى من ذلك المايوه الرقيق الذى كانت تضم به صدرها وتشد ردفيها .

ما شاء الله ... ماذا أتى بك فى جهنم يا ساحرة الدنيا وحورية الجنان !!

هاربة ولاشك من الفردوس ... فما مقام مثلك إلا بين النخيل والأعناب .. إن منزلك يا آنسة فى جنات النعيم تستقين من رحيق مختوم ... لا فى جحيم من سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم .

وأسندت المجرفة على الأرض واتكأت عليها ووقفت أتأملها .. فما كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. لتصهل النيران وتئز .. وليصرخ شيخ الزبانية ويضج .. ولينتظر المذنبون فى أماكنهم .. فما من شىء يستطيع أن يحرمنى أن أمتع منها بصرى ، وأشبع من مرآها نهم عينى .

ماذا أخشى الآن .. لقد خشيت فيما مضى حساب الدنيا وعقاب الآخرة . أما الآن ، فإنى ميت .. وفى جهنم .. وخالد فيها أبدا .. ماذا يمكن أن أخشى بعد ذلك . ماذا يمكن أن يصيبنى من مكروه شر مما أنا فيه ؟ قيل « ضربوا الأعور على عينه .. قال خسرانه خسرانه » فما بالكم وأنا بالنسبة لهذا الأعور الذى قيل فيه المثل : أعمى .

نظرت إلى صاحبتنا وأنا متكىء على المجرفة وقد ثنيت جسدى ولففت ساقا بساق .. متخذا بوزا من أرشق البوزات .. تماما كما فعل كبار المبصبصاتية فى ميدان العتبة وناصية عماد الدين ، متناسيا — كما يفعل كل إنسان — ما أنا فيه من قبح المنظر .. متناسيا ذلك الهباب الذى لوث جسدى وشوه وجهى ... متناسيا ذلك الذى فى يدى كأنى زبال أو كناس .. متناسيا ذلك الدور الفظيع الذى أقوم به ، والشخصية المرعبة التى قد تقمصتها .

وقفت أتأمل صاحبتنا .. أو الملاك الكريم .. كما كنت وغيرى من البلهاء

ندعوها فى دنيانا ، وقد تهدل شعرها الذهبى على كتفيها العاريتين ، وبرقت عيناها الصافيتان ، واحمرت وجنتاها من فرط الحرارة ، وضمت شفتيها العذبتين . وبدا جسدها وقد لفحه الصهد .. وانعكست عليه أشعة النيران الحمراء المنبعثة من جوف الفرن ، آية فى الروعة والجمال .. صدر بارز فى تحد .. وخصر ضيق فى استواء .. وساقان مستقيمتان فى امتلاء ، وبشرة ناعمة فى نقاء وصفاء .

ومضت برهة وأنا أتأملها مأخوذا مشدوها .. متناسيا كل من حولى .. حتى سمعت صوت شيخ الزبانية يصيح من أقصى المكان ، فأفقت لنفسى وتذكرت ما أنا فيه .. وما أوشك أن أفعله . فسرت فى جسدى رعدة ، وتملكتنى حيرة شديدة .

من يتصور أنى أستطيع أن أمسك بيدى هذا الجسد الغض البض .. فأدفع به إلى السعير ليصبح فحمة سوداء ؟!

شلت يدى قبل أن تفعل الفعلة النكراء ، ومزق جسدى إربا إربا .. قبل أن أرتكب الجريمة الشنعاء .. إن قلبى لم يتحجر .... وكبدى لم يغلظ .. وإن عينى مازال فيها نظر .

ووجدت الحسناء تنظر إلى فى ذعر وفزع .. كأنها تنظر إلى نفر من الجن ، أو شيطان رجيم .. فعلمت أنها لم تعرفنى بعد .. ولم أجد بدا من أن أفعل شيئا أبعث به الطمأنينة إلى قلبها .. فابتسمت ابتسامة .. وضعت فيها ما استطعت من الرقة والعطف .. التى لم تكن تتناسب قط مع ما أنا فيه من قسوة وغلظة ، ولست أشك أن الابتسامة قد بدت للحسناء كأنها تكشيرة عن الأنياب .. فقد ازداد بها الفزع وجحظت عيناها .

وكرهت أن أكون السبب فى فزعها .. فأسرعت أقول لها هامسا :

— أهلا .. أهلا .

ولم تعرفنى المرأة رغم قولى هذا ، فلقد خيل إليها أنه قول ساخر شامت ،

ولم أدرك كيف أستطيع طمأنتها دون أن أثير الشبهات حولى وخاصة وأنا أرى العيون الفزعة تحملق فى .

وكسوت وجهى مظهر القسوة واقتربت منها فجذبتها من ذراعها بشدة ، ثم همست فى صوت خافت لم يسمعه غيرها :

— لا تخافى .. أنا محسوبك « فلان » .

ونظرت إلى فى دهشة بالغة وهمست بقولها :

— ماذا أتى بك إلى هنا ؟

— خير لك أن تتجاهلينى .. حتى لا يشك أحد فى أمرنا .

ثم رفعت صوتى قائلا :

— أيتها اللعينة اقتربى .. ماذا فعلت فى دنياك ؟

وأجابتنى مستعطفة :

— لا شىء أبدا .. لا شىء أكثر من عبث بالقلوب وبالجيوب .. واستثمار لما وهبت من أسهم الجمال وسندات الفتنة .. كنت أبيع سحرى لتجار العشق فى سوق الجمال بالربح المركب .. هذا كل ما فعلت .

وأهاج قولها فى نفسى كامن الشجن .. ونكأ فى قلبى جرحا ظننته قد اندمل .. وتذكرت نفسى تاجرا من تجار العشق خاسرا مغبونا .. أبيع خفقات قلبى ونبضاته ولوعاته وأناته .. لقاء لحظات من الخديعة والغش .. تذكرت نفسى ملهاة فى يد الحسناء .. تبيعنى النفاق بالإخلاص ، وتجزينى عن الحب آلاما وأوجاعا .. كم أسهدتنى وكم أرقتنى ؟ كم تركت فى الفؤاد حرقة ، وفى القلب جوى .. كم دفنت فى حشاى سهامها ورماحها .. كم كانت متعتها خادعة زائلة .. وكان نعيمها براقا سرابيا ، سريع الأفول .. كانت كما نقول : بائعة للجمال فى سوق العشش .. كان يدفعنا إليها وقتذاك جوع القلب وظمأ الفؤاد .. لعنة الله عليها .. لقد مرغنا الحب عند أقدامها ، وأذلنا الهوى على أبوابها .

ونظرت إلى المرأة مرة أخرى فخيل إلى أنى أكاد أستشف من وراء بياض ظاهرها ، سخومة باطنها .. وإنى أكاد أبصر وراء نعومة جلدها أشواك الخديعة وجراثيم الخيانة . ونظرت إلى النيران المتأججة فى باطن الفرن وقلت لنفسى : إن هذه المرأة فى أشد الحاجة إلى تلك النيران لتصهر بها نفسها الملوثة وتحرق جراثيم الشر المتكتلة فى جوفها .. لابد لها من النيران لكى تزيل شوائبها .. وتجعل باطنها كظاهرها .

وهمست فى أذن المرأة :

ــ إيه يا تاجرة الهوى .. وبائعة الوجه الجميل والجسد الرائع .. لقد عبثت بنا فيما مضى .. هل تسمحين بأن نجد معك الآن .. لقد لوثتنا فى الدنيا ، وسنطهرك فى الآخرة ، أحرقتنا بنيران الإثم .. وسنصهرك فى نيران الاستغفار ، لا تعتبى علينا .

خرجت موازينكم بالسواء — شر بشر فلا معتبه

وأمسكن بحسناء الوجه .. شوهاء القلب .. بيضاء الجسد .. سوداء النفس .. فدفعت بها دفعة قوية ألقت بها فى جوف السعير قائلا لها :

ــ لا بأس عليك .. ستشوه النيران جسدك .. وتجمل قلبك .. سيسود اللهب جسدك .. ويبيض نفسك . إنك لاشك الرابحة .

ونظرت إلى الذى يليها .. فتملكتنى بعض الخشية .. ورأيتنى أقترب منه باحترام ، ولم أتمالك نفسى من القول :

ــ أهلا وسهلا .. سعادة الباشا :

لقد وجدته فلان باشا ، الرجل العظيم القدر ، صاحب الحول والطول ، المحسن الكبير الذى لم تخل الصحف مرة واحدة من تبرعاته التى كان يغدقها على مشروعات الخير .. الرجل الذى شيد الجامع المعروف باسمه ، والذى منح من أجله رتبة الباشوية .. هذا الرجل الطيب الكريم .. ماذا أتى به إلى هنا ؟!.

ولم يجب الرجل على تحيتى ، فقد كان فى حالة من الذعر مخيفة .. وكان فكاه

يصطكان وركبتاه ترتجفان ، ووجدته يتوسل إلى :

ـــ أنا فى عرضك ؟.

ـــ العفو .. يا سعادة الباشا .. ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

ـــ لا شيء .. لا شيء أبدا .. لقد أكلت أموال اليتامى الذين وليت أمرهم ، وتركتهم يتضورون جوعا ، هذا كل ما فعلت !

ـــ لا .. بسيطة .

ونظرت إلى الرجل .. ووجدت سابق احترامى له تبدد .. ورهبتى منه قد قلبت ازدراء واحتقارا .. ونظرت إلى بطنه المنتفخ فخيل إلى أنى أبصر فيه أكداسا من أموال اليتامى .. الذين أثرى على حسابهم .. فأتخم شبعا وتضوروا جوعا .. واكتسى الخز والديباج ، وباتوا حفاة عراة .. إنى أبصر فى أحشائه النفاق .. الذى جعله يبنى بيت الله .. لا لوجه الله ، بل لوجه الشهرة .. لقد جوزى على صنيعه بالرتبة ، ربما تكون الرتبة قد أفادته فى الدنيا .. دنيا الحمقى والبلهاء .. أما هنا .. فلا أظن الرتبة تجديه نفعا .. إن الذى يجديه نفعا ، هو هـذا السعير الملتهب .. الذى يستطيع أن يصهر أموال اليتامى المكدسة فى معدته فيجعله يتقايؤها ويذهب عنه ذلك ـــ الكرش ـــ المنتفخ ، فيصبح خفيفا لطيفا .. ويزيل كذلك سخائم الرياء الملتصق بأحشائه .. فيشفيه من ذلك المغص الذى يمزق أمعاءه .

وأمسكت بالرجل فدفعته إلى النار .. ونظرت إلى الذى بعده :

ـــ سبحان الله .. حتى أنت هنا .. لعنة الله عليهم .. لابد أنهم قد أحضروك إلى جهنم خطأ ... لقد كان عليهم أن يرعوا على الأقل حرمة لحيتك المسترسلة .. أنت رجل لاشك طيب ورع .. فطالما رأيتك تقيم الصلاة ، وتتنقل بين المساجد لتعظ الناس وترشدهم .. كيف أتيت إلى هنا ؟!

وهز الرجل رأسه ببطء وقال فى تؤدة :

ـــ كنت أتظاهر .. كنت أقيم الصلاة ، وارتكب الفحشاء والمنكر ، كنت

أعظ الناس بألا يكذبوا ، وكنت شيخ الكاذبين ... كنت أحضهم على الإحسان وفعل الخير ، وما أحسنت فى حياتى مرة ولا فعلت خيرا .. لقد كانت المسألة — أكل عيش — ... كانت مهنة وحرفة .. لقد كنت مجرد ممثل .

— لا بأس عليك .. سأسهل لك هنا مسألة — أكل العيش — ولكنه سيكون « عيش مقمر .. » ، وتستطيع كذلك أن تستمر فى التمثيل .. ولكن احذر من أن تصيب النيران لحيتك .. تفضل يا سيدى .. تفضل .

ثم دفعت به بأقصى قواى ، إلى جوف اللهب .. وبعد لحظة وصل إلى أنفى رائحة شياط لحيته .. وسمعت صوته يعظ من سبقه إلى داخل النار بالتقوى والورع .. إنه مستمر فى تمثيله .

وتلفت حولى فوجدت أنى أسير فى العمل ببطء وأن هذه الدردشة — التى أدردشها مع الزبائن — قد ضيعت وقتى .. فشمرت عن ساعدى ، وأقبلت على العمل فى صمت ، و لم أجد هناك معنى للسؤال بعد ذاك ، فما أظن هناك أحدا منهم إلا ويستحق جهنم ، بل شرا من جهنم إذا كان هناك شر منها .

وهكذا أقبلت على الآثمين ، أدفع بالواحد تلو الآخر حتى أتيت علهم جميعا ، ووقفت أستريح برهة فقد أحسست أنى على وشك أن يغشى على من فرط التعب .. وظننت أن لابد سنأخذ فترة راحة .. ولكنى وجدت الزبنى الذى بجوارى قد انتهى من جماعته ، وعاد ليدفع بالوقود إلى الفرن . فهمست أقول وقد تملكنى اليأس : « ألم يحن الوقت بعد للراحة ؟ لقد انتهينا من حرق الخنازير » .

وأجابنى الزينى : « إننا لا ننتهى أبدا .. إنهم سيغيرون جلودهم ثم يعودون إلينا » .

وهنا فاض بى ، وأخذت أبحث عن طريقة لتنقذنى مما أنا فيه ، و لم أجد خيرا من أن أبث بين الزبانية روح التمرد والثورة ، وأخذت أصب فى أذن جارى كلمات التحريض وهو ينقلها إلى جاره ، وجاره ، وهكذا لم تمض فترة من الوقت حتى كانت قد سرت بين الزبانية موجة من التذمر والتمرد .

ووجدت الزبنى الذى بجوارى يهمس فى أذنى :

— إن الرفاق يسألوننى .. ما الحل .. ما الطريقة التى يأخذون بها حقوقهم ؟

وفكرت برهة ، وتذكرت ما قام به أهل الأرض .. ثم همست إليه :

— الطريقة بسيطة جدا .. الإضراب .

— إضراب !. ماذا تعنى ؟

— هذه خير طريقة اكتشفها أهل الأرض فى الحصول على مطالبهم ، يضربون عن العمل .. فيفزع أولو الأمر .. ويعطونهم فى لحظات ما أبوه عليهم فى سنوات .. إنها طريقة سحرية عجيبة .

— ولكن من يقوم بإشعال النيران وحرق الآدميين . إن جهنم ستتعطل إذا فعلنا ذلك .

— يا سيدى لتتعطل ، بناقص حرق يوم أو يومين .. على أية حال لن يحدث من إضرابكم ضرر ، وهل يكون إضرابكم شرا من إضراب التومرجية ، والطباخين ، الذين تركوا المرضى يتضورون جوعا ويموتون إهمالا .. أم شرا من غيرهم وغيرهم ؟

وسرعان ما سرت الفكرة بين الزبانية وأخذنا ننسج فى صمت خيوط المؤامرة ، واتفقنا على إشارة بيننا لبدء الإضراب .

بدأ إضراب الزبانية فى جهنم وألقوا بالمجاريف ، وكفوا عن إلقاء الوقود ، وهموا بالتجمع .. عندما سرت فى الجحيم ريح رطبة باردة ، وعندما اتضح أن أحد العلماء من زبائن جهنم قد ركب آلة تكييف هواء .

الجو الآن منعش ، والزبانية فى حالة إضراب عام .

والآدميون قد جلسوا يسلون أنفسهم بالسيجة ولعب الطاولة .

وفجأة أقبل شيخ الزبانية وهو يضج ويصيح ، ووراءه ، عزرائيل وصبيانه ، بعد أن أمرهم أن يعودوا بالآدميين إلى الأرض .. حتى تستقر الحالة فى الجحيم ،

ويعود الزبانية إلى العمل .

وهنا سمعت صياحا بين الآدميين أنهم لا يودون العودة إلى الأرض .. إن الجحيم خير من الأرض .

ووقف رجل يستعطف شيخ الزبانية قائلا :

— ارحمنى يا سيدى .. لا تعد بى إلى الأرض ، جحيمكم خير منها مائة مرة .. إنى صاعد من هيروشيما ، المكان الذى ألقوا فيه قنبلتهم الذرية . وإن البشر الحمقى على وشك أن يخوضوا غمار حرب تجعل الأرض كلها هيروشيما أخرى ، إن جحيمكم بالنسبة إلى ما كنت فيه جنة عالية .. إن شرور الأرض شر من سعيركم .

ولكن لم يكن هناك مفر من عودتنا ، فعدنا إلى الأرض .

أيها الناس .. ارحموا أنفسكم ، فما أظن هناك شرا من هذا الجحيم الذى نعيش فيه !.

فى الجنة

هذا هو الفردوس ، مكان المؤمنين والصالحين والأنبياء . تبارك الخلاق ! والله إنه لشيء يستحق أن يزهد الإنسان من أجله فى الدنيا .. وأن يرعوى ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء .. هذا هو النعيم .. لعن الله الدنيا بمباذلها ومساوئها .

غفل عنى حارسى برهة يتحدث مع صاحب له وتلفت حولى فقرأت لافتة على باب فخم أنيق « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ، وحملقت بعينى فى اللافتة أعيد قراءتها مرارا وتكرارا ، وقلت لنفسى فى دهش وعجب :

ــ إذا فهذه هى الجنة .. ليس بينى وبينها ألا فركة كعب ، خطوة واحدة .

ونظرت إلى حارسى فإذا به ما زال منهمكا فى الحديث مع صاحبه ، ونظرت إلى الباب فوجدته غير محكم الغلق ، وتلفت يمنة ويسرة أبحث بعينى عن رشوان فلم أجد له أثرا . وساورنى خاطر عجيب ، هذه فرصة الحياة الأخرى . فرصة لا أظنها قد أتيحت لبشر سواى .

باب الجنة يكاد يستدعينى : « هيا أيها الأحمق ، لا تتردد » .

وأخذت أفكر بسرعة ، فقد أحسست أنى أمام لحظة حاسمة أستطيع أن أحول فيها مصيرى فى الدار الأخرى .

ماذا أخشى ؟ ماذا يحدث لو هربت من حارسى ووليت الفرار فى ربوع

الجنة ، واختفيت بين نخيلها وأعنابها ، وحورها وولدانها ؟!

سيكتشف الحارس فرارى ، وسيبحث عنى هنا وهناك ، ويرتعد خوفا من رؤسائه ، خشية أن يتهم بالإهمال فى الخدمة ويفكر برهة ، ثم يهبط إلى الأرض فيحضر أقرب إنسان يصادفه ، ويصعد به إلى السماء بدلا منى ، ويتناسى كل ما كان من أمرى .

أما رضوان ، فلا أظن أنه سيشعر بى ، أو يكشف أن أهل الجنة قد زادوا واحدا ، ولو عرف فسيغض الطرف ، إذ ليس من مصلحته فى شىء ، أن يثير ضجيجا حولى وحول نفسه .

ونظرت إلى حارسى للمرة الأخيرة ، وأخذت أتسلل بخطوات جانبية على أطراف أصابعى ، وأنا أراقبه ، وهو يتحدث مع صاحبه ، وبعد برهة قادتنى خطواتى إلى الباب نفسه .. فاستدرت فجأة ووليت وجهى إلى الداخل وأطلقت ساقى للريح .

وأخذت أعدو وأعدو .. مندفعا كالزوبعة ، وكأن بساقى مسا من الشيطان ، وهب على وجهى نسيم عليل بعث فى جسدى نشاطا غريبا وساعدنى على الانطلاق .

ولست أدرى كم من الزمن عدوت حتى أحسست أن جهدى قد نفد !. وأننى إن لم أقف فسأخر صريعا . فبدأت أتمهل . ثم انطرحت على الأرض خائر القوى مبهور الأنفاس .

ومضت فترة قبل أن أعود إلى نفسى ، وجلست متربعا فى مكانى أنعم بالبصر فيما حولى ، وأحدث نفسى .

إذن فهذا هو الفردوس .. مكان المؤمنين والصالحين والأتقياء .. تبارك الخلاق . والله إنه لشىء يستحق أن يزهد الإنسان من أجله فى الدنيا ، وأن يرعوى ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء . هذا هو النعيم .. لعن الله الدنيا بمباذلها ومساوئها .

وكانت جلستى على شاطئ نهر لجينى فياض ، كأنه بلور سائل ، لا تشوب صفوه شائبة ، ولا يعكر من نقائه كدر . ورأيت الشاطئ يمتد أمامى فى خضرة ناضرة كأنها بساط سندسى تكاثفت على جنباته الأشجار المحملة بالثمار .

وأغرانى منظر النهر السيال بأن أغرق فيه جسدى .. فخلعت ثيابى واندفعت أعدو متوثبا . وقفزت إلى النهر وبى فرحة الأطفال .

أوه !! ما هذا..؟ أى أحمق غبى أنا ..؟ وما هذه اللزوجة التى أحسها .. كيف لم أفكر فى هذا ؟.

من يصدق أنى قد ألقيت بجسدى فى نهر من العسل ؟. ماذا أصابنى حتى نسيت أنى فى الجنة .. وأن أنهارها من عسل مصفى .. أما كان يجب على أن أحاول تذوق ما فى النهر قبل أن أندفع فيه بجسدى ؟.

وأخذت أتحرك بمشقة حتى وصلت إلى الشاطئ .

ولتتصوروا حال إنسان يقف عارى الجسد يقطر العسل من كيعانه وأصابعه وأنفه وذقنه ، كأنه قفص من البلح الأمهات .

وتلفت حولى أبحث عن قليل من الماء أزيل به الشهد من جسدى .. فلم أجد ، وخطر لى أن أحاول لعق العسل بلسانى .. كما تفعل القطط عندما تحاول تنظيف جسدها ، وفعلا بدأت أمس أصابعى ، وألحس يدى ، ولكنى شبعت قبل أن أصل إلى الرسغين .

ولم أجد أمامى طريقة تخفف عنى إلا التمرغ على البساط السندسى ، ومسح جسدى فى حشائش الأرض ، وبدأت أتمرغ تماما كما يتمرغ الحصان الاسترالى .

ونجحت هذه الطريقة بعض الشىء ، ولكننى ما زلت أحس باللزوجة فى كل أجزاء جسدى ، وحملت ملابسى ، وقلت أجول جولة عساى أجد ماء أغتسل فيه .

وأشرفت بعد برهة على نهر عريض براق ، و لم أحاول بالطبع أن أرتكب الحماقة التى ارتكبتها فى المرة السابقة ، خشية أن يكون هو الآخر من عسل ، بل تقدمت إلى النهر ، ومددت أصابعى أتحسسه .. فلم أجد فيه لزوجة فاطمأن خاطرى . وقفزت إليه .

و لم أجد صعوبة فى تحريك أعضائى .. ولكننى شممت رائحة عجيبة .. شديدة الشبه برائحة « الجونى ووكر » و « الديوارس » معتقة .. وأحسست بخيبة شديدة .. فقد كان يجب على أن أعرف أن فى الجنة أيضا أنهار من خمر لذة للشاربين ، وأسرعت بالخروج ، فقد كنت لا أكره شيئا فى حياتى سوى الخمر ورائحة الخمر .

واندفعت إلى الشاطئ ، ولكننى تعثرت وغطست .. وشرقت ، ودخلت فى جوفى كمية لا بأس بها من الخمر المعتقة . وأخيرا تمكنت من الخروج إلى الشاطئ وبى سخط شديد وقد احمر وجهى ، وأخذت أسعل سعالا مستمرا .

وجففت الخمر من جسدى بطرف جلبابى .

ومضت فترة أحسست فيها بشىء من الهدوء والثقل فى رأسى وتملكنى شعور بأننى قد أصبحت على حد قولهم « مبسوط شوية » ، وقمت من مكانى ورغبتى فى الغناء قوية وبدأت الغناء : « آه لو كنت معى ! » .

ولست أدرى كم من الزمن قد سرت على هذه الحال .. فقد كنت فى انشراح تام .

وفجأة .. وجدت أمامى منظرا .. سمرنى فى مكانى .. وأصاب رأسى بدوار ، وجعل فمى يغفر ، وعينى تحملقان .

لقد أبصرت أمامى نهرا يفيض باللبن .. و لم يكن هذا بالطبع هو ما أثار دهشى .. فقد كنت أتوقع أن أرى كل أنواع الأنهار ما دمت فى الجنة .. ولكن الذى أذهلنى .. هو ما رأيته بجوار النهر .

لقد رأيت الحور العين !!

ولا مراء فى أنى كنت أعرف أن فى الجنة حورا .. ولكن الذى لم أكن أعرفه .. هى تلك الفتنة التى أبصرتها فيهن .. ثم .. أن أراهن رأى العين .. عاريات مجردات لا تسترهن ورقة التوت أو التين التى كانت تستر أم البشر حواء .

ووقفت حائرا مشدوها ، لا أستطيع أن آتى بحركة ، خشية أن يحسسن وَجودى فيفزعن ، ويولين هاربات ، شاردات ، وتسللت خفية فأختفيت وراء كوم من أعشاب الشاطئ ، وأخذت أرقبهن من مكمنى .

ودار بخلدى وقتذاك أنه لو عرضت هذه الحور العين على أهل الأرض ، ورأوها رأى العين كما أبصرتها أمامى ، وعلموا أن « العينة بينة » وأن للصالحين من هذا الصنف ما يشاءون . ترى هل يبقى فى الأرض بعد ذلك إنسان غير صالح ، وهل يجسر أحد على ارتكاب إثم أو جرم يحرمه تلك الحور ؟ لا أعتقد ، وأنا عن نفسى أؤكد أنه لو أجريت معى التجربة لقضيت عمرى ساجدا ، راكعا ، متعبدا ، متبتلا ، ولأصبحت فى حياتى ناسكا فى صومعة .

وأخذت أتأمل الحور الثلاث ، بأجسادهن الرائعة ، وبشرتهن النقية الصافية وصدورهن المتماسكة ، وهيأ لى السكر أن أسوق إليهن بعض ألفاظ الغزل مما تعودت استعماله مع نساء الأرض . وقلت لنفسى : إن النساء هن هن يحببن الثناء فى الأرض وفى السماء ، وبدأت أبحث فى ذهنى عن جملة ملائمة ، غزل سماوى من النوع الراق ، وهدانى العقل ، أو قل : قلة العقل ، إلى أن أنطلق صائحا :

ــ تبارك الخلاق ! خلق فسوى .

ولم أكد أنطق بهذا حتى استسخفت نفسى ، ولم أشك فى أن صاحباتنا سيجبننى بنظرة ازدراء واحتقار ، ثم يتكرمن على بكلمة « يا سم »

أو « يا دم » ، ولكن رأيتهن ينظرن إلى باسمات ، ورأيت إحداهن تشير إلى محيية ، وتبعتها الثانية بصوت رقيق :

— أهلا وسهلا .

وقال الثالثة :

— تفضل .

يا نهار ابيض .. هكذا مرة واحدة .. سلامات وتحيات ، ودعوات طيبات .

وخرجت من مكمنى وقد تملكنى خجل ووجل ، رغم تلك الجرعة التى جرعتها من نهر « الجونى ووكر » واقتربت من الحور ، وقد أثملنى سحرهن أكثر مما أثملتنى الخمر .. وسألتنى إحداهن :

— ألا تنوى الاستحمام ؟

ونظرت إلى النهر الأبيض وقلت فى دهش :

— أستحم فى اللبن ؟

فأجابتنى فى تخابث ، وقد لاحظت ما علق بجسدى من عسلٍ وخمر :

— أليس هذا أفضل من غيره ؟

— طبعا . طبعا . ولكن كنت أفضل لو كان عندكن ..

— ماذا ؟

— ماء .. ماء قراح .. ماء عادى .. فقد تعودنا أن نستعمله فى الأرض للاستحمام .

— هيا .. هيا .. ولا تكن جاهلا .. إياك أن تذكر الماء بعد ذلك .. هيا اخلع ملابسك .

— أخلع ملابسى ؟.. أستغفر الله .

ونظرت إلى الحور نظرتهن إلى أبله معتوه ... وتكأكأن على مقهقهات يحاولن نزع ملابسى .. وأخذت أحاول التملص منهن .. وقد أصابتنى نوبة من الضحك .

وفجأة سمعت صوتا جهوريا أعرف نبراته يهتف صائحا :

— هو .. أجل .. إنه هو بعينه .

وتلفت خلفى فإذا بحارسى قد وقف مني على قيد خطوات وهو يصيح :

— هو . الهارب المخادع . لقد ظن أنه يستطيع الفرار منى . والله لأرينك « نجوم الضهر » . ساعتين وأنا أبحث عنك حتى أعيانى البحث .. وأنت هنا مغرق فى اللهو والعبث ؟

وهنا وجدت الحور الثلاث قد أسرعن يسترن أنفسهن ، ونظرن إلى شذرا وقالت إحداهن :

— يا للفضيحة .. إذا فهو ليس من أهل الجنة ؟! يا للمخادع الشرير !!

وتملكنى غيظ وخجل .. ونظرت إلى حارسى الذى سبب لى هذا الحرمان وتلك السخرية وتمنيت لو استطعت أن أهجم عليه فأطبق على زمارة رقبته .. وصحت به :

— كف عن قلة الأدب .. واحفظ لسانك .. ما هذا الذى تقوله : هارب ومخادع .. أجننت ؟

— « ولك عين » تتكلم بعد كل ما فعلت ؟

— ماذا فعلت ؟

— ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

— أتيت للبحث عنك .

— عنى أنا ؟

— أجل لقد تلفت حولى فلم أجدك ، ورأيت أمامى بابا مفتوحا فظننتك قد دخلت منه ، فدخلت وراءك وظللت أبحث عنك حتى الآن .

— ولكنك تعرف أن الباب الذى دخلت منه هو باب الجنة .

— ومن قال لى إنى لن أدخل الجنة .. أنا رجل صالح ولم أفعل فى حياتى ما يستدعى دخولى النار .

وبدا على الحارس الأبلة أنه اقتنع بقولى .. وظهرت عليه علامات الندم على تهوره معى ، وأخذ يتمتم ببعض كلمات الاعتذار .. ثم ربت على كتفى قائلا :

ــ هيا بنا !..

ــ إلى أين ؟.

ــ ألم أقل لك إنى رجل صالح وإنى متأكد أن مصيرى الجنة .. فلم لا تتركنى وتذهب فى سبيلك ؟.

ــ لا تكن غبيا .. أنا لا أستطيع أن أذهب بالناس إلى الجنة أو النار .. أنا لست إلا حارسا أصعد بهم إلى السماء .. ولست أنت الذى تحكم على نفسك بالصلاح .. لابد لك من أن تؤدى الحساب عما فعلت .. ولابد أن توزن سيئاتك وحسناتك .. وسيكون مصيرك متعلقا بالكفة الراجحة .

ــ وأين هو هذا الميزان ؟. أحضره حالا .. فأنا لا أخشى الحساب .

ــ ليس الحساب هنا لابد لنا أن نخرج من هذا المكان .

وإزاء عناده واصراره لم أر بدا من الرحيل ، فأشرت إلى الحور بتحية وداع ، وغمزت لهن بعينى ، وأفهمتهن أن ينتظرننى ، فإننى عائد إليهن بعد قليل .

وسرت مع حارسى .. ووصلت إليه رائحة الخمر تنبعث من فمى . فنظر إلى وقال فى دهش :

ــ ما هذا ؟ .. أنت شارب .. هل تنوى أن تحضر الحساب هكذا .. ورائحة الخمر تفوح من فمك ؟.. هذا ليس فى مصلحتك .. و ..

ــ هذا خمر حلال .. من أنهار الجنة .

ــ حلال ، أو حرام ، هذا ليس من شأنى ، ولكننى أخبرك .. أنك أول من أراه يصعد إلى السماء وهو فى حالة سكر .

ــ أنا لست سكران .. أنا مبسوط فقط .

ووصلنا أخيرا إلى ساحة الحساب .. ووجدت حارس الميزان وقد جلس

متربعا على منصة .. ورأيته يفتل شواربه من حين لآخر . ولمحت على جانبيه ملكين قد حمل كل منهما جعبة ممتلئة منتفخة . وهمس حارسى فى أذنى مشيرا إليهما :

ــ هذا ملاك الخير .. وهذا ملاك الشر .

ونظرت إليهما وحييتهما ببشاشة قائلا :

ــ أهلا .. أهلا .. آنستونا .

و لم يجبنى منهما أحد ، فنظرت إلى ملاك الخير ، وقلت له :

ــ شد حيلك .. اجمد .. أنا فى عرضك .. إن الحور فى انتظارى .

و لم يعرنى الملاك أدنى التفات ، ونطق حارس الميزان موجها القول إلى ملاك الشر قائلا فى لهجة الأمر :

ــ هات ما عندك .

و كرهت أن يفتتح الحساب ، ملاك الشر ، وحاولت أن أفهمهم أنى أرغب فى أن يبدأ بملاك الخير ، ولكنه نظر إلى شزرا وقال فى حنق :

ــ اسكت أنت .

وبدأ ملاك الشر يخرج من جعبته محتوياتها ، وفحصت المحتويات بعينى ، فأدهشنى أن أجدها مجموعة من « مسامرات الجيب » .. وتملكنى العجب ، وصحت ساخرا :

ــ أهذا هو الشر ؟

و لم يلتفت إلىّ أحد ، وبدأ ملاك الشر حديثه قائلا :

ــ هذه هى الصور العارية التى كان ينشرها على صفحات المجلات ، والتى كان ينشر بها الرذيلة ويحض بها على الفجور ، وهذه القصص التى كان يحرض الناس فيها على الحب .

وبدأ يضع المجموعة الحاشدة فى الميزان فلم تتحرك الكفة ، و لم تهبط قيد أنملة ، وقال حارس الميزان :

— « إن الله جميل يحب الجمال » .. هذا ليس بِشرّ ، ولا يعتبره شرا إلا صاحب النفس الشريرة ، التي يحرك غرائز الفجور فيها أى مظهر من مظاهر الجمال ، النفس التي لا تستطيع المقاومة والتى تخشى من كل شىء وتغمض عينها عن كل شيء . ماذا عندك غير هذا ؟

وبدا الدهش على ملاك الشر ، وأخذ يفتش فى جعبته ويدفع يده فى نهايتها محاولا البحث عن شيء آخر ، وأخيرا أخرج يده ببعض الفتات ، وقال فى غير اكتراث :

— لم يبق معى غير أشياء ضئيلة .. لقد زجر المحاسَب ذات مرة سائلا محتاجا ورفض أن يعطيه قرشا ليشترى به قوتا لنفسه فى الوقت الذى دخل هو السينما ليرفه عن نفسه بعشرين قرشا .

ثم وضع « فتفوتة » فى كفة الميزان . فإذا بها تهبط حتى تصطك بالأرض .

وقال حارس الميزان :

— هذا جرم خطير .. ماذا عندك غير ذلك ؟

— لقد مر المحاسَب ذات مرة على طفل من أبناء السبيل لا يستر جسده سوى خرق بالية فى برد الزمهرير ، وكان هو يرتدى معطفا وجاكتة وصديريا من الصوف . فنظر إلى الطفل فى استهانة دون أن يحرك ساكنا :

ثم وضع « فتفوتة » أخرى فزادت الكفة هبوطا :

وظل يضع فتاته حتى أتى عليها .

وهنا كان الذعر قد تملكنى .. فنظرت إلى ملاك الخير وشككت كثيرا فى أنه يستطيع أن يثقل كفته فيوازن الميزان .

وتوجه حارس الميزان إلى ملاك الخير ، فقال :

— هات ما عندك !.

وبدأ ملاك الخير يخرج من جعبته كتلا كبيرة وهو يقول :

ـــ هذه صلوات أربع سنين ، وصيام عشرة أعوام .

ثم ألقى بالكتل إلى كفة الميزان فلم تتحرك ، وكدت أصعق ، ونظرت إلى حارس الميزان ، فوجدته يهز رأسه أسفا ويقول :

ـــ لا فائدة ، لقد كانت صلاته ميكانيكية ، يركع ويسجد ، وهو شارد الذهن ، كأنه يقوم بحركات رياضية ، أما الصيام ، فلم يكن أكثر من تجميع أكلات اليوم فى أكلة واحدة يتناول فيها ما لذ وطاب من الكنافة ، وقمر الدين ، والمشمشية .

ـــ ماذا عندك غير هذا ؟.

وذهل ملاك الخير ، كما ذهل من قبل ملاك الشر ، وبدأ يبحث فى جعبته عن بقايا وفتات ، وأخيرا أخرج منه قرشا ، وقال :

ـــ هذا قرش أعطاه المحاسَب ذات مرة لخادم صغير كان يحمل طبقا من الفول فسقط منه ، وجلس يبكى ، ومر عليه المحاسَب وكان لم يزل طفلا صغيرا .. فأخرج مصروفه من جيبه وأعطاه للخادم ليشترى به فولا حتى لا يضربه سادته .

ثم وضع القرش فى الكفة . فإذا بها تهبط هبوطا عجيبا ، وتكاد تتعادل مع كفة الشر .

ثم مد يده بعد ذلك فى الجعبة ، وأخرج منها فنجانا صغيرا سكب منه بضع قطرات فى الكفة ، فإذا بها قد هبطت حتى تعادلت مع كفة الشر ، وقال الملاك :

ـــ هذه بعض الدموع التى سكبها المحاسَب .. فى مواساة نفس حزينة وقلب مكلوم .

وصمت ملاك الخير ، وسأله حارس الميزان :

ـــ هل عندك شيء آخر .

ـــ لا .

ثم التفت إلى ملاك الشر .

ــ وأنت ؟

ــ لا شيء .

ــ الكفتان متوازيتان .. يعاد مرة ثانية .

وجرنى الحارس من يدى وعاد بى ، وهمست فى أذنه :

ــ إلى أين ؟!.

ــ إلى الأرض . فلابد أن ترجح إحدى الكفتين على الأخرى حتى نستطيع إدخالك الجنة أو النار .

وسرت بجواره ، ولكننى توقفت فجأة وسألته :

ــ أتسمح لى بلحظة ؟.

ــ لم ؟.

ــ أمر على الحور .. فإنى أخشى أن يقلقن من طول الانتظار .

ــ لا تكن أحمق .. ألم تعرف من يدخل الجنة ، ومن يدخل النار ؟!..

ــ أجل .. أجل ..

إذا فعد إلى الأرض واصنع من الخير ما ترجح كفته على كفة الشر ، وعندما تعود إلينا فى المرة القادمة سأذهب بك إليهن رأسا .. فستكون ضامنا الجنة .

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زغرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبي	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ...... ١٩٧٣)

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه